القِراءَة الراشِدَة
لـ «نهج البَلاغة»

ردّاً على استنتاجات عبد الرحمن الجميعان
في قراءته لـ «نهج البلاغة»

تأليف
الفقيه المحقق
الشيخ جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

القراءة الراشدة

لـ«نهج البلاغة»

القراءة الراشدة لـ «نهج البلاغة»

ردّاً على استنتاجات عبد الرحمن الجميعان

في قراءته لـ «نهج البلاغة»

تأليف

الفقيه المحقّق

جعفر السبحاني

نشر

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

السبحـاني التبريزي، جعفر، ١٣٤٧ق ـ
القراءة الراشدة لـ «نهج البلاغة» / تأليف جعفر السبحاني.ـ قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام،
١٣٩٨.
٢٠٨ص.
ISBN:978-964-357-637-0 فهرست‌نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
كتابنامه: ١٩٧ـ ٢٠٢؛ و همچنين به صورت زيرنويس.
١. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اوّل، ٢٣ق. هـ ٤٠هـ، نهج البلاغه ــ نقد و تفسير.
٢. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اوّل، ٢٣ ق. هـ. ٤٠ هـ، مباحث خاص.
٣. جميعان، عبدالرحمن بن عبدالله، ـ قراءة راشدة لكتاب نهج البلاغة ــ نقد و تفسير.
٤. شيعه ــ دفاعيه‌ها و رديه‌ها.
الف. مؤسسه امام صادق عليه السلام. ب. عنوان: رداً على استنتاجات عبدالرحمن الجميعان في قراءته لـ «نهج البلاغة». ج. عنوان.
٤ ق ٢س /٣٨/ BP ٢٩٧/٩٥١٥
١٣٩٨

اسم الكتاب:................... القراءة الراشدة لـ «نهج البلاغة»
المؤلّف:................... جعفر السبحاني
الطبعة:................... الأولى
الناشر:................... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
المطبعة:................... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
تاريخ الطبع:................... ١٣٩٨هـش/١٤٤١هـق/٢٠١٩م
الكمية:................... ١٠٠٠نسخة
القطع:................... رقعي
التنضيد والإخراج:................... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

تسلسل النشر:١٠٣٣ تسلسل الطبعة الأولى:٤٨٦

توزيع
مكتبة التوحيد
ايران ـ قم؛ ساحة الشهداء
☎ ٣٧٧٤٥٤٥٧؛ ٠٩١٢١٥١٩٢٧١
http://www.imamsadiq.org
http://www.Tohid.ir

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف رسله وخاتم أنبيائه محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

أمّا بعد؛ فإنّ كتاب «نهج البلاغة» الذي جمعه العلّامة الحجّة محمد بن الحسين بن موسى البغدادي المعروف بالشريف الرضي(٣٥٩ـ٤٠٦هـ) من كلام الإمام الهمام علي عليه السلام كتاب تعلوه مسحة من الكلام الإلهي وعبقة من الكلام النبوي، وهو بحر ليس له ساحل، وكنز مشحون بأنواع الدرر والجواهر، يفوح من نفحاته المسك الأذفر والعنبر، ونعم ما قيل فيه:

نهج البلاغة نهج العلم والعمل
فاسلكه يا صاح تبلُغ غاية الأملِ
كم فيه من حِكَمٍ بالحقّ مُحكمة
تُحيي القلوب ومن حُكْمٍ ومن مَثَل

ألفـــاظه دُرر أغـــنت بـــحليتها
أهل الفضائل عن حلي وعن حُـلل
ومن معانيه أنـوار الهـدى سـطعت
فانجاب عـنها ظـلام الزيـغ والزلل
وكيف لا وهـو نـهجٌ طـاب مـنهجُهُ
هدى إليـه أمـيرُ المـؤمنين عـلي[١]

مع أنّه بحر لا ساحل له، إلّا أنّه يمكن جمع أكثر مباحثه في العناوين التالية:

١. الإلهيات وما وراء الطبيعة.
٢. العبادة والسلوك.
٣. الحكومة والعدالة.
٤. أهل البيت والخلافة.
٥. المواعظ والحكم.
٦. حبّ الدنيا وآثاره الموبقة.
٧. الشجاعة والحماسة.
٨. الملاحم والمغيّبات.
٩. الدعاء والمناجاة.
١٠. الشكوى ممّن حوله من الناس.
١١. الأُصول الاجتماعية.
١٢. الإسلام والقرآن.
١٣. الأخلاق وتهذيب النفس.

إلى غير ذلك من المباحث التي لا يقف عليها إلّا من نهل من منهله العذب وطالع خطبه وكتبه وقصار كلماته عليه السلام.

وقد حظي «نهج البلاغة» بالمرتبة التالية لكتاب الله العزيز، فكان

---

١. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢٤٤/١.

العلماء قديماً وحديثاً يحفظونه ويتبرّكون بذلك، كما يحفظون آيات القرآن الكريم ويتبرّكون بها، وقد عُدّ من حفظته في قرب عهد المؤلّف القاضي جمال الدين محمد بن الحسين بن محمد القاساني فقد كان يكتب نهج البلاغة من حفظه.[١]

وقد اهتمّ علماء الأُمّة الإسلامية بهذا الكتاب قديماً وحديثاً فقاموا بشرحه والتعليق عليه وترجمته من عهد الشريف الرضي إلى زماننا هذا، وقد أحصىٰ العلّامة الأميني أكثر من ثمانين شرحاً لهذا الكتاب.[٢]

لكن شيخنا المجيز آقا بزرگ الطهراني‏ﷺ أنهىٰ شروحه إلى ١٤٨شرحاً.[٣]

وجاء بعدهم الشيخ حسين جمعة (المعاصر) الذي أفرد كتاباً لدراسة هذه الشروح [٤] بعنوان: «شروح نهج البلاغة» وأنهاها إلى ٢١٠ شرحاً.[٥]

إنّ هؤلاء الأعاظم قرأوا كتاب نهج البلاغة قراءة تفهّم وتدبّر ليستضيئوا بأنواره وينهلوا من منهله الصافي لا بعقيدة مسبقة؛ بل

---

١. لاحظ: فهرست منتجب الدين: ٤٣٤.
٢. لاحظ: موسوعة الغدير: ٤/٢٥٦ـ ٢٦٥.
٣. لاحظ: الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٤/١١١ـ ١٨١.
٤. وقد طبع في بيروت سنة ١٤١٣هـ في ١٧٢ص.
٥. لاحظ: مجلة تراثنا: العدد ٢ و٣، السنة ٩، ١٤١٤هـ ص١٥٥.

تجرّدوا عن كلّ شيء حتى يعثروا على ضالّتهم في هذا الكتاب القيّم بعد كتاب الله سبحانه وسنّة رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

قراءة نهج البلاغة لأغراض خاصّة

أليس من العجيب ـ وما عشت أراك الدهر عجباً ـ أن نجد أنّ أحد المعاصرين يقرأ كتاب نهج البلاغة لا للاستضاءة من أنواره، أو الانتهال من منهله العذب؛ بل لغاية نقد عقائد بعض الفرق؟! فلم تقع عيونه الساهرة الّا على الخطب والكلم التي تصلح ـ حسب استنتاجه وفهمه ـ لأن تكون ردّاً على الفرقة الناجية (الشيعة الإمامية). وهذا المؤلف هو أحد أعضاء مبّرة الآل والأصحاب، يُدعىٰ بـ «عبد الرحمن بن عبد الله الجميعان»، فقد ألّف رسالة باسم **«قراءة راشدة لكتاب نهج البلاغة»** ولم تكن قراءته كذلك، إذ لم تقُدْه إلى الرشد ومعرفة الحقّ، والشاهد على ذلك أنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار، مشحونة ببيان المعارف والحكم والمواعظ وأخصّ بالذكر كلامه حول توحيده سبحانه وتنّزيهه عن التجسيم والتشبيه والجهة ووصف أفعاله بالحكمة، إلّا أنّ الكاتب لم ينتفع من كلام الإمام عليه السلام في نهج البلاغة في مجال هذه المواضيع أصلاً، بل ركز على ما ورثه من عقائد ابن تيمية وتلميذ منهجه: ابن عبد الوهاب حتى أظهر ذلك بصراحة في المبحث السابع من رسالته[1]،

---

١. لاحظ: قراءة راشدة لكتاب نهج البلاغة: ٧١.

ولذلك قلنا أنّ قراءته لم تكن قراءة راشدة. وها نحن نذكر شيئاً من مباحث التوحيد التي وردت في خطب الإمامعليه السلام كي يتّضح للقارئ الكريم الفرق الكبير بين ماعليه الإمامعليه السلام وما نطق به ابن تيمية، فقد وصف الإمامعليه السلام الله سبحانه ـ في أحد خطبه ـ بقوله: «ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ ٱلْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ ٱلسَّوَاتِرُ».(١)

ويقول الإمامعليه السلام: «مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ».(٢)

وفي موضع آخر قال: «ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي ٱنْحَسَرَتِ ٱلْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! هُوَ ٱللهُ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ ٱلْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ ٱلْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً».(٣)

هذا هو التوحيد الذي دعا إليه الإمامعليه السلام، ولنقارنه بنموذج من التوحيد الذي دعا إليه إمام مذهب المؤلّف ـ أعني: ابن تيمية ـ فقد قال في الرسالة التاسعة من مجموعة الرسائل الكبرى: تواتر عن رسولهصلى الله عليه وآله وسلم وأجمع عليه سلف الأُمّة من أنّه سبحانه فوق سماواته،

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٥١.

على عرشه، عليٌّ على خلقه.[١]

ومعنى العبارة أنّه سبحانه:

١. فوق السماوات.

٢. مستقر على عرشه.

٣. في مكان مرتفع عن السماوات والأرض.

وليس لهذه الجمل معنى سوى أنّه كمَلِك جالس على السرير في مكان مرتفع ينظر إلى العالم تحته.

نعم استند هو في كلامه هذا على ما نقلوه عن رسول الله ﷺ: «ويحك! إنّه لا يُستشفَع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟ إنّ عرشه على سماواته لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبّة عليه، «وإنّه ليئطّ به أطيط الرَّحل بالراكب». وفي لفظ «إنّ الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته».[٢]

ولا تعجب من كلامه هذا، فإنّه يقول بإمكان استقراره سبحانه على ظهر البعوضة، وفناء العذاب في الآخرة.[٣]

---

١. مجموعة الرسائل الكبرى: ١/٤٠١، العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، طبعة محمد على صفح.

٢. سنن أبي داود: ٨٨٤ـ٨٨٥، برقم ٤٧٢٦.

٣. بيان تلبيس الجهمية: ١/٥٦٨.

اقرأ واقض

مواصفات الآل والصحابة في القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم يرفع منزلة الآل في غير واحدة من الآيات، وكفى في ذلك قوله سبحانه:﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾.[٢]

وفي موضع ثالث يقول سبحانه: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ**﴾.[٣]

قال السيوطي: أخرج ابن مردويه عن أنس وبُريدة، قالا: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا...**﴾ فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر، فقال: يا رسول الله هذا البيت منها؟ (مشيراً إلى بيت علي وفاطمة عليهما السلام)، فقال:نعم، من أفاضلها».[٤]

وأمّا الصحابة فلا شكّ أنّ صحبة النبيّ ﷺ شرف وكرامة لمن

---

١. الأحزاب:٣٣.

٢. الشورى:٢٣.

٣. النور:٣٦ـ٣٧.

٤. الدر المنثور:٦/٢٠٣.

يصاحبه ويتّبع هديه وهداه، ويستضيء بنوره، وقد مدح القرآن الكريم قسماً من أصحابه الذين آزروه ونصروه في مواقف كثيرة، ومع ذلك فليس كلّ الصحابة على نهج واحد، وكفى في إثبات ذلك ما ورد في سورة الجمعة، أعني قول الله سبحانه في حقّهم: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾**.(١)

روى البخاري بإسناده عن جابر رضي الله عنه، قال: بينما نحن نصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاماً، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلّا اثنا عشر رجلاً، فنزلت: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾**.(٢)

وقال السيوطي: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن مقاتل ابن حيّان قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب الناس في الجمعة أقبل شاةٌ وشيء من سمن، فجعل الناس يقومون إليه، حتى لم يبق إلّا قليل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تتابعتم لتأجّج الوادي ناراً».(٣)

وقال أيضاً: أخرج عبد بن حُميد عن قتادة قال: ذُكر لنا أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم قام يوم الجمعة فخطبهم ووعظهم وذكّرهم، فقيل: جاءت

---

١. الجمعة:١١.

٢. صحيح البخاري، كتاب البيوع، برقم ٢٠٥٨، وكتاب الحجة، برقم ٨٣٦

٣. الدر المنثور:١٦٧/٨.

عير، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسكم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، ثم قام الجمعة الثانية فخطبهم ووعظهم وذكّرهم، فقيل: جاءت عير فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم، فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسكم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال: «والذي نفس محمد بيده لو اتبع آخركم أوّلكم، لالتهب الوادي عليكم ناراً». وأنزل الله فيها ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾.[1]

أصناف الصحابة في الذكر الحكيم

إنّ القرآن الكريم يذكر من بين الصحابة فئات عديدة ويصفهم بأنّهم:

١. المنافقون المعروفون.(لاحظ: سورة المنافقون، الآية ١).

٢. المنافقون المختفون.(لاحظ: سورة التوبة، الآية ١٠).

٣. مرضى القلوب.(لاحظ: سورة الأحزاب، الآية ١٢).

٤. السمّاعون.(لاحظ: سورة التوبة، الآية ٤٧).

٥. خلطوا العمل الصالح بغيره.(لاحظ: سورة التوبة، الآية ١٠٢).

٦. المشرفون على الارتداد.(لاحظ: سورة الأعراف، الآية ١٥٤).

٧. المؤلّفة قلوبهم. (لاحظ: سورة التوبة، الآية ٦٠).

٨. المولّون أمام الكفّار.(لاحظ: سورة الأنفال، الآيتين ١٥ و١٦).

---

١. الدر المنثور:٨/١٦٧.

٩. الفاسقون.(لاحظ: سورة الحجرات، الآية ٦).

١٠. الذين كانوا يختانون أنفسهم في ليالي شهر رمضان(لاحظ: سورة البقرة:١٨٧).

ومع هذا التقسيم والتصنيف كيف يمكن أن نصف عامّة الصحابة بالعدل والتقى؟! وهذا لا يعني أنّ كلّهم ـ والعياذ بالله ـ كانوا كذلك، بل نقول: إنّ حكمهم حكم التابعين، فالشيعة لا تفرّق بين الصحابي والتابعي، ولا تعدّ وصف أعمالهم، بما ثبت منها في التاريخ الصحيح، سبّاً لهم، ولا تغضّ النظر عن التاريخ الصحيح.

وبذلك يتّضح أنّ جعل الآل والصحابة في درجة واحدة، وتسمية المؤسّسة باسم «مبّرة الآل والأصحاب» على خلاف الإنصاف، والغاية من الإقران والمعيّة إيهام الشيعة بأنّ أصحاب المؤسسة وكتّابها هم من محبّي آل البيت، ولا يفرّقون، في هذا الحبّ، بينهم وبين الأصحاب.

إلى هنا تمّ ما أردنا من التقديم، ولنبدأ بدراسة ما فهمه المؤلّف ـ غفر الله له ولنا ـ من كلمات الإمام عليه السلام على خلاف ما عليه الشيعة الإمامية.

المؤلّف

جعفر السبحاني

رمضان المبارك عام ١٤٤٠هـ

المبحث الأوّل

الإمامة

خصّ مؤلّف الرسالة المبحث الأوّل، بموضوع الإمامة وقال: **الإمامة ـ قطعاً ـ من مهمّات الدين** حماية لحوزة الإسلام ولسياسة الناس في دنياهم، لكنّها لا تبلغ منزلة التوحيد... ثمّ يقول: ولا شكّ أنّ الكتاب والسنّة يؤكّدان هذا الأمر كلّ التأكيد، **فليست معرفة الإمام أو الإمامة أهم شيء في الدين.**[1]

يلاحظ عليه بأمرين:

الأوّل: لا شكّ أنّ التوحيد هو الأصل الأساس في عامّة الشرائع السماوية، قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[2]. وليس من شك أنّه ليس كعترة النبيّ وأهل

---

١. قراءة راشدة:٨.

٢. النحل:٣٦.

بيته من قال مثل قولهم في توحيد الله وتنزيهه عن الجسم والجسمانية والتشبيه بالممكنات ذاتاً وصفاتاً، لقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[١]

الثاني: لا أظن أنّ مسلماً واعياً ينزّل معرفة الإمامة منزلة التوحيد ويسوّي بينهما، فالبحث فيهما والتركيز على أنّ الثانية أهمّ كأنّه توضيح للواضحات.

***

ثمّ إنّ المؤلّف يبذل جهوداً بالغة لإنكار النصّ على الإمامة في نهج البلاغة، ونحن نذكر قبل نقد كلامه، النصوص الصحيحة التي يذكرها الإمام علي عليه السلام في خطبه ورسائله، والتي تدلّ على أنّ الإمام كان يستدلّ على المخالفين بالنصّ عليه من قبل النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وإليك البيان.

الإمامة والنصّ

١. «ولهم خصائص حقّ الولاية»

قال عليه السلام في تعريف آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ

---

١. الشورى: ١١.

أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمادُ ٱلْيَقِينِ. إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي. وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ ٱلْوِلاٰيَةِ، وَفِيهِمُ ٱلْوَصِيَّةُ وَٱلْوِرَاثَةُ».(١)

هذا المقطع ـ الذي أغمض الكاتب عنه عينيه ـ جزء من خطبة له بعد عودته من وقعة صفين، فهو يعرّف آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنّهم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي.

ثمّ ذكر عليه السلام حقّ الولاية وقال: «وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ ٱلْوِلاٰيَةِ» وهل الولاية إلّا الإمرة؟ وهذا يدلّ على أنّ الإمرة حقّ شرعيّ لهم، سواء انتخبهم الناس أم لا، ويؤيّد ذلك قوله:«وَفِيهِمُ ٱلْوَصِيَّةُ وَٱلْوِرَاثَةُ»، والعبارة ظاهرة في اختصاص آل محمد(عليّ وأبنائه) بالوصاية وخلافة رسول الله، وأمّا الوراثة فالمراد ميراث المال، والمجموع أفضل دليل على أنّ إمامة عليّ عليه السلام كانت منصوصاً عليها من الله سبحانه، وأنّه أُقصِي عن حقّه يوم ارتحل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عليه السلام: «ٱلْآنَ إِذْ رَجَعَ ٱلْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!»(٢) وهذا يُشير إلى أنّ الحقّ كان في غير أهله، وهو عليه السلام أهله، والآن رجع إليه.

ثمّ إنّ في صدر هذه الخطبة ما يدلّ على عظمة شأن آل محمّد، قال: «هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ ٱنْحِنَاءَ ظَهْرِهِ،

---

١ . نهج البلاغة: الخطبة٢.

٢ . نهج البلاغة: الخطبة٢.

وَأَذْهَبَ آرْتِعَادَ فَرَائِصِهِ».[١]

٢. «ما زلت مدفوعاً عن حقّي»

من كلام له عليه السلام بعد أن أُشير عليه بألّا يتبع طلحة والزبير ولا يُرصد لهما القتال، فقال: «وَآللهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلى طُولِ اللَّدْمِ...» ثم قال: «فَوَآللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ آللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هٰذا».[٢]

أقول: ماذا يُريد الإمام من هذا الحقّ المسلوب؟ هل أُريد الإمامة التي يمنحها الناس له؟ فالمفروض أنّه لم يمنحوه إيّاها، فلم تبق إلّا المنزلة والمكانة التي وضعه الله ورسوله فيها، وهذا دليل آخر على كونه كان صاحب حقّ بتنصيص من الله عزّ وجلّ ومن رسوله.

وإن شئت قلت: الظاهر من الحقّ هو الحقّ الموجود فعلاً لا شأناً، والحقّ الفعلي رهن أحد أمرين إمّا الانتخاب وإمّا التنصيص، فلمّا انتفى الأوّل تعيّن الثاني.

٣. «طلبت حقاً لي»

قال عليه السلام من خطبة له: «وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هٰذَا آلْأَمْرِ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَآللهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٦.

وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ».[١]

اختلف الرواة في تعيين من قال للإمامعليه السلام: إنّك على هذا الأمر لحريص، فقيل هو: سعد بن أبي وقاص، يوم الشورى بعد مقتل عمر، ولكنّه بعيد، لأنّه روى عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قوله في حقّ عليعليه السلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى».

وقيل: إنّ القائل هو أبو عبيدة الجراح يوم السقيفة.

هذا وقد تواترت الأخبار عنهعليه السلام بمضمون هذا الكلام، فقد روى عنهعليه السلام ابن أبي الحديد في شرحه أمثال هذا الكلم:

١. قالعليه السلام: «ما زلت مظلوماً منذ قبض الله رسوله حتى يوم الناس هذا».

٢. قالعليه السلام: «اللّهمّ أخز قريشاً فإنّها منعتني حقّي وغصبتني أمري».

٣. وقالعليه السلام: «فجزى قريشاً عني الجوازي، فإنّهم ظلموني حقّي، واغتصبوني سلطان ابن أُمّي».

٤. وحين سمع صارخاً ينادي: أنا مظلوم، فقالعليه السلام: «هلمّ فنصرخ معاً، فإنّي ما زلت مظلوماً».[٢]

أقول: ماذا يقصد الإمامعليه السلام من قوله:«**إنّما طلبت حقّاً لي وأنتم**

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٢.

٢. شرح نهج البلاغة: ٩/٣٠٦ـ٣٠٧.

تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه»؟ فإنّ الحقّ الذي أُريد به ـ الولاية والإمامة ـ له مصدران إمّا منحول من الأُمّة بالانتخاب والاختيار، أو منصوص من الله سبحانه الذي له حقّ الولاية مطلقاً على جميع الخلق، والأوّل لم يتحقّق، فلم يبق إلّا الآخر.

ثمّ انظر إلى قولهعليه السلام: «ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ».[1] فإنّ معناه أن تنتصف لي منهم، فإنّ الانتصاف دليل على أنّ قريشاً غصبوا حقّاً فعليّاً له، وليس هو إلّا الحقّ المنصوص.

ينقل ابن أبي الحديد في ذيل هذه الخطبة، عن يحيى بن سعيد ابن علي الحنبلي المعروف بابن عالية قال: كنت حاضراً الفخر إسماعيل بن علي الحنبلي... ونحن عنده نتحدّث إذ دخل شخص من الحنابلة، قد كان له دَين على بعض أهل الكوفة فانحدر إليه يطالبه به، واتّفق أن حضرت زيارة يوم الغدير، ثم سُئل هذا الشخص عن الأُمور التي رآها عند أهل الكوفة، فقال: يا سيدي لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح و الأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جِهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة! فقال إسماعيل: أيّ ذنب لهم! والله ما جرّأهم على ذلك، ولا فتح لهم هذا الباب إلّا صاحب ذلك القبر.

فقال ذلك الشخص: ومَن صاحب القبر؟ قال: عليّ بن أبي

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٧.

طالب! قال: يا سيدي، هو الذي سنّ لهم ذلك وعلّمهم إيّاه وطرّقهم إليه! قال: نعم والله. قال: يا سيّدي فإن كان محقّاً فما لنا أن نتولّى فلاناً وفلاناً! وإن كان مبطلاً فمالنا نتولّاه؟! ينبغي أن نبرأ إمّا منه أو منهما.

قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً، فلبس نعليه، وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة، ودخل دار حرمه، وقمنا نحن وانصرفنا.(١)

وجه استدلال الإمام بالقرابة على إمامته

نعم ربما يستدلّ الإمام‌عليه‌السلام على صلاحيته ونفي صلاحية الآخرين بما له من الخصائص الكريمة والفضائل الواضحة، كالقرابة وأمثالها، وهذا واضح في جوابه عن سؤال أحد أصحابه وذلك حين كانت الحرب دائرة بينه وبين أصحاب معاوية، فقد سأله بقوله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ فأجاب الإمام‌عليه‌السلام بعد الإشارة إلى أنّ هذا السؤال في غير موقعه بقوله: «أَمَّا ٱلْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهٰذَا ٱلْمَقَامِ وَنَحْنُ ٱلْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَٱلْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ ٱللهِ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَٱلْحَكَمُ ٱللهُ، وَٱلْمَعْوَدُ إِلَيْهِ ٱلْقِيَامَةُ».(٢)

---

١. شرح نهج البلاغة: ٩/٣٠٧ـ٣٠٨، وإسماعيل هو: فخر الدين إسماعيل بن عليّ بن الحسين الأزجيّ (المتوفّى ٦١٠) الحنبليّ، الفقيه المعروف بغلام ابن المنّيّ.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٦٢.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ
وَلٰكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

ترى أنّه صلوات الله عليه لا يستدلّ بالنص بل يستدلّ بالخصائص الموجودة فيه من قوله: «وَنَحْنُ ٱلْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَٱلْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ نَوْطاً» وما هذا إلّا لأنّ السائل لم يكن يتصوّر النص ولا يعتقده ولا يخطر بباله، ولذلك قال عليه السلام كلاماً موافقاً لسؤاله: كيف دفعكم قومكم عن هذا وأنتم أحقّ به؟ باعتبار الهاشمية والقربىٰ.

فأجاب الإمام عليه السلام بجواب ينطبق على سؤال السائل وقال: إنّما فعلوا ذلك مع أنا أقرب إلى رسول الله من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا. ومثل هذا النوع من الاستدلال يوجد أيضاً في بعض خطبه وثنايا كلامه، وما هذا إلّا لأجل تطابق الجواب مع السؤال.[1]

إلى هنا تمّ ذكر ما استدلّ به الإمام عليه السلام على تعيّنه للخلافة والإمامة تنصيصاً.

نقد انطباعات الكاتب من كلام الإمام عليه السلام على عدم النص

استدلّ الكاتب على عدم وجود نصٍ على إمامة علي عليه السلام بكلمات الإمام في بعض خطبه وكتبه وحكمه القصار، وما زعمه دليلاً ليس إلّا استنباطات شخصية.

---

١. لاحظ: شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٥٠ـ ٢٥١.

الشبهة الأُولى: قال: ففي كلام لعلي عليه السلام لكميل بن زياد النخعي، يؤكّد أنّه:«لَا تَخلُو ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ ٱللهِ وَبَيِّنَاتُهُ»، ثم يقول: «أُولٰئِكَ ـ وَٱللهِ ـ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَٱلْأَعْظَمُونَ عِنْدَ ٱللهِ قَدْراً. يَحْفَظُ ٱللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّىٰ يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ...» أفتدري من هؤلاء؟ إنّهم العلماء. ثم يكمل كلامه قائلاً:«أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ دِينِهِ. آهِ آهِ شَوْقاً إِلَىٰ رُؤْيَتِهِمْ!»[١]، فالعلماء هم الذين يثني عليهم هذا الصحابي الجليل، ويرفع من مكانتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.[٢]

الجواب: إنّ ما جزم به الكاتب من أنّ المراد بمن ذكرهم الإمام بقوله:«لَا تَخْلُو ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلّهِ بِحُجَّةٍ...» هم العلماء، ليس بصواب. ويتّضح هذا عند قراءه كلامه عليه السلام، الذي سبق الفقرات التي نقلها الكاتب، حيث يشير عليه السلام فيه إلى أصناف من العلماء الذين ليست لهم الصلاحية لحمل علمه، ثمّ استدرك وأشار إلى جماعة أُخرى لهم صلاحية ووصفهم بقوله:«ٱللَّهُمَّ بَلَىٰ! لَا تَخْلُو ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ ٱللهِ وَبَيِّنَاتُهُ».

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٤٧.

٢. قراءة راشدة :٨ و٩.

وإليك نصّ كلامه، الذي لم ينقله الكاتب، قال عليه السلام: «يَا كُمَيْلُ، هَلَكَ خُزَّانُ ٱلْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَٱلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَ أَمْثَالُهُمْ فِي ٱلْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هٰاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَىٰ أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ ٱللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ؛ أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ ٱلْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ. أَلَا لَاذَا وَلَا ذَاكَ! أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ ٱلْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَٱلْإِدِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا ٱلْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ! كَذٰلِكَ يَمُوتُ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

ثمّ استدل عليه السلام، وقال:

ٱللَّهُمَّ بَلَىٰ! لَا تَخْلُو ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلّٰهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ ٱللهِ وَبَيِّنَاتُهُ.

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولٰئِكَ؟ أُولٰئِكَ ـ وَٱللهِ ـ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَٱلْأَعْظَمُونَ عِنْدَ ٱللهِ قَدْراً. يَحْفَظُ ٱللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّىٰ يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ ٱلْعِلْمُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ ٱلْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ ٱلْيَقِينِ، وَٱسْتَلَانُوا مَا ٱسْتَعْوَرَهُ ٱلْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا ٱسْتَوْحَشَ مِنْهُ ٱلْجَاهِلُونَ. وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ ٱلْأَعْلَىٰ.

أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ دِينِهِ. آهِ آهِ شَوْقاً إِلَىٰ رُؤْيَتِهِمْ!

ٱنْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ».

حاصل كلام الإمام هو أنّهعليه السلام بعدما صرّح بأنّه يحمل علماً جمّاً، قال: «لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً» أي من الذين يطيق فهمه فضلاً عن حمله، لألقىٰ عليهم علمه. ثمّ إنّه قسّم الذين يصيبهم إلى خمسة أقسام:

١. أهل الرياء والسمعة الذين يُظهرون الدين والعلم ومقصودهم الدنيا.

٢. قوم من أهل الخير والصلاح ليسوا بذوي بصيرة في الأُمور الإلهية الغامضة.

٣. رجل صاحب لذات وطرب مشتهر بقضاء الشهوة.

٤. رجل عُرف بجمع المال وادّخاره.

فهذه الأصناف الأربعة ليسوا من رجال هذا الباب.

ثمّ قالعليه السلام: «كَذٰلِكَ يَمُوتُ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ» أي إذا مات، مات العلم الذي في صدره، لأنّه لم يجد أحداً يدفعه إليه. فعندئذٍ استدرك كلامه هذا بالإشارة إلى صنف خامس يمتاز عن الأصناف السابقة بسمات تؤهّلهم لحمل علمه، وما هؤلاء إلّا لأنّهم من حجج الله وبيّناته، وهم بين ظاهر مشهور وخائف مغمور. هذا هو كلامهعليه السلام.

وأمّا مَن هم هؤلاء(الصنف الخامس)، فإنّ مَن سبر «نهج

البلاغة» وقرأ كلماته عليه السلام في حقّ العترة الطاهرة يقف على أنّ مراده هنا هم الأئمة الأحد عشر من ولده.«فإنّهم حجج الله وبيّناته، بين ظاهر مشهور» وهم الأئمّة العشرة «وخائف مغمور» وهو الحجة المنتظر ثاني عشر الأئمة عليهم السلام، فهؤلاء ورثوا العلوم النبوية والعلوية. والشاهد على ذلك أنّ الإمام وصفهم ـ وراء كونهم حجج الله وبيّناته ـ بقوله: «أُولٰئِكَ ـ وَٱللهِ ـ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَٱلْأَعْظَمُونَ عِنْدَ ٱللهِ قَدْراً. يَحْفَظُ ٱللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّىٰ يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ» فكلّ إمام يحمل علماً من الإمام المتقدّم عليه ثم يودعه إلى مَن يقوم مقامه.

أوصاف الصنف الخامس يدلّ على أنّ المراد بهم الأئمّة

وصف الإمام عليه السلام الصنف الخامس بأوصاف أُخرى، وقال: «هَجَمَ بِهِمُ ٱلْعِلْمُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ ٱلْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ ٱلْيَقِينِ»: أي انكشف لهم المستور المغطىٰ وباشروا روح اليقين... إلى أن قال:«أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ دِينِهِ». هذا هو تفسير موجز لبعض كلماته عليه السلام، ومَن قرأ هذا الكلام من أوّله إلى آخره يجد أنّ العترة الطاهرة هم المصاديق الواضحة لكلامه، فكلامه عليه السلام فيما تدعيه الإمامية أظهر،ولذلك نرى أنّ ابن أبي الحديد يقول: كلام الإمام عليه السلام يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية.(١)

---

١. شرح نهج البلاغة:٣٥١/١٨.

وممّا ذكرنا ظهر أنّ الكاتب لم يقرأ نهج البلاغة، كما يدّعيه في صدر رسالته، حيث قال: فوقفت أتأمّل هذه الحياة طويلاً، وطفقت أعبّ من كتبهم عبّاً، وأقرأ ما بين السطور وأتوغّل في القراءة.[1]

ثمّ إنّه ذيّل استدلاله هذا بما روي عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَ مُؤَدِّبِهِمْ».[2]

ثم قال: ماذا يعني بقوله:«من نصب نفسه إماماً»؟ وهل يُسمّى مغتصب الخلافة إماماً؟[3]

أقول: من الأُمور الواضحة أنّ صحّة الاستدلال تقتضي أن تكون بين المدّعىٰ والدليل صلة ورابطة واضحة، والموضوع الذي أثاره الكاتب هو مسألة الإمامة، وأنّه ليس ثمّة نصّ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ عليّ عليه السلام، فإذا كان هذا هو المدّعىٰ فأيّة صلة بينه وبين قول الإمام عليه السلام هذا، حيث يؤكّد على أنّ مرشد القوم ومؤدّبهم يجب أن يكون على سيرة محمودة حتى يؤثّر كلامه في مَن يؤدّبهم، ولا يكون من الذين يقولون ما لا يفعلون؟ ونسأل الكاتب: بيّن لنا وجه الصلة بين

---

١. قراءة راشدة:٦.

٢. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٧٣.

٣. قراءة راشدة:٩.

المدّعى والدليل...

ثمّ إنّ الكاتب خُيّل إليه أنّ المراد من الإمام هو الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك صار يتشاغب فيقول: ماذا يعني بقوله: «من نصب نفسه إماماً» وهل يُسمّى مغتصب الخلافة إماماً؟ وكأنّه يريد بذلك الرّدّ على الشيعة الذين لا يعترفون بخلافة الثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أقول: اشتبه عليه الأمر، فإنّ الإمام عليّاً عليه السلام بصدد إلقاء ضابطة كلّية لا تختصّ بمَن تسنّم منصب الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل تشمل كلّ مَن يقود الناس ويرشدهم من غير فرق بين كونه إماماً للناس جميعاً، أو رئيس قبيلة معيّنة، أو قائد جيش، أو خطيب قوم، أو معلّم تلاميذ.

وحاصل كلامه عليه السلام: إنّ مَن يتّخذ لنفسه موقع المعلّم والمربّي، يجب أن يكون تأديبه للناس بسيرته وسلوكه قبل تأديبه لهم بقوله ولسانه. وكلامه هذا ينطبق على إمام الناس جميعاً وأئمّة المساجد والوعاظ والخطباء وأساتذة الجامعات ومعلّمي المدارس. وأمّا أنّ كلّ مَن نصب نفسه إماماً، فهو إمام صالح ومستحقّ للإمامة فلا يدلّ عليه كلامه.

نعم إنّ اللائح من كلام الكاتب أنّ كلّ مَن نصب نفسه إماماً يكون إماماً صالحاً، ولذلك رتّب على هذا الزعم قوله: «وهل يُسمى

مغتصب الإمامة إماماً؟» مع أنّ الذكر الحكيم يصف بعض من نصب نفسه إماماً بكونهم من الدعاة إلى النار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾.[١]

الشبهة الثانية:

قال الكاتب: وفي كتاب من كتبه المهمة جاء فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيْمِناً عَلَىٰ ٱلْمُرْسَلِينَ. فَلَمَّا مَضَىٰ عليه السلام تَنَازَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ. فَوَٱللهِ مَا كَانَ يُلْقَىٰ فِي رُوعِي، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ ٱلْعَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلَّا ٱنْثِيَالُ النَّاسِ عَلَىٰ فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ. فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ ٱلْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَىٰ مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ٱلْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ؛ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ ٱلْأَحْدَاثِ حَتَّىٰ زَاحَ ٱلْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَٱطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ».[٢]

---

١. القصص: ٤١.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٦٢.

ثمّ قال بعد ذلك: هذا كتاب الخليفة عليعليه السلام إلى أهل مصر، أرسله مع صاحبه مالك الأشتر لما ولاه إمرة مصر،... إلى أن قال: المهم في الأمر ما في هذا الكتاب من معان: انظر إلى كلماته:

أ. «تَنَازَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ...» ولم يقل: الكفّار أو الذين ارتدّوا بعد وفاتهصلى الله عليه وآله أو الفسّاق، وإنّما سمّاهم «المسلمون».(١)

يلاحظ عليه: بأنّ ما ذكره نوع شغب وتدليس، إذ لم يقل أحد من الشيعة والمسلمين بأنّ الناس في ذلك الوقت كانوا فسّاقاً أو كفّاراً، فإنّ الإسلام يقوم على أُصول ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، فمَن اعتقد بذلك فهو مسلم، فماذا يريد الكاتب بقوله: «لم يقل الكفّار أو الذين ارتدوا». نعم صحاح القوم ذكرت ارتداد جمع من الصحابة بعد النبيصلى الله عليه وآله، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أنّه كان يحدّث أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى».(٢)

وكم لهذا الحديث من نظائر، بل جاء مضمونه في روايات أُخرى، فلاحظ الباب. فإذا وصف صحيح الكتب ـ كما يدّعي القوم ـ

---

١. قراءة راشدة: ١٠.

٢. صحيح البخاري: ٢٠٨/٧، باب في الحوض، برقم ٦٥٨٥، وفي رواية أُخرىٰ فيحلّؤون.

هؤلاء بالردّة، فلماذا يؤخذ البريء بجرم المذنب؟

ثمّ قال الكاتب: ثمّ انظر إلى قوله: «ولا يخطر ببالي... من بعده...» فماذا تلاحظ أيّها القارئ الكريم.

وهو يعني قول الإمام علي عليه السلام: «وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ ٱلْعَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله وسلم»، واستنتج من ذلك أنّه ليس هناك نصّ يستند عليه في قضيته (الخلافة والإمامة).[١]

أقول: كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة إلى أهل مصر، وبعثها مع مالك الأشتر نفسه، كما ذكر ذلك الشريف الرضي حيث قال: ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتها، ومن المعلوم أنّ لكلّ كلام مقاماً، ولكلّ مقام مقالاً، وموقف الإمام في هذه الرسالة ليس موقف الاستدلال على إمامته وخلافته عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإلّا كان عليه أن يستدلّ بحديث الغدير وحديث المنزلة إلى غير ذلك من النصوص، بل كان الإمام عليه السلام في مقام بيان السبب الذي دعاه إلى الوقوف موقفاً إيجابياً مع جهاز الخلافة التي سبقته، وحاصل السبب يتّضح لمَن قرأ تاريخ المسلمين بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أنّ طليحة ادّعى النبوّة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوجّه إلى حربه ضرار بن الأوس، فأفلت منه، ولكن ضعُف أمره... ثمّ قوي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة المرتدّين، وعزم أن يغزو بهم

١. قراءة راشدة: ١٠.

المدينة ويحتلها. قال ابن الأثير في حوادث سنة (١١هـ): ارتدّت العرب، وتضرمت الأرض ناراً بعد وفاة رسول الله ﷺ وارتدّت كلّ قبيلة عامّة أو خاصة إلّا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة.

ولمّا علم المسلمون بغزو طليحة المدينة تماسكوا واتّفق الصحابة كلمة واحدة على حربه، وخرج الإمام عليه السلام من عزلته، ورابط بنفسه في مكان قريب من المدينة، واقتدىٰ به آخرون، وأغار طليحة على المدينة ليلاً، وكان المسلمون له بالمرصاد، فهزموه وفرّقوا جمعه وقتلوا العديد من عسكره، ولم يصب أحد من المسلمين، ثم لحقت جيوش الإسلام بطليحة الفار، فانصرف عنه أصحابه بعد إيقانهم بكذبه، وهرب هو إلى الشام، ونزل ببني كلب، وأظهر التوبة والإسلام ليسلم من القتل، ولمّا مات أبو بكر وبويع عمر أتاه وبايعه.[1]

وبكلمة قصيرة فالإمام عليه السلام لم يكن في مقام المناشدة والاحتجاج على صلاحيته لمنصب الإمامة وإنّما ذكر ذلك مقدّمة لما يأتي بعده، وأنّ قريشاً كانوا يعرفون ما له من الصلاحية، ولكنّهم عدلوا عنه، ومع ذلك فالإمام عليه السلام لم يجعل ذلك ذريعة لعدم التعاون مع الحكام آنذاك في المواقف الخطيرة، وأخطرها هو ارتداد قبائل العرب، ولذلك شمّر عن ساعديه للدفاع عن الإسلام.

١. في ظلال نهج البلاغة: ٤/ ١٥٠ـ١٥١.

ما هو السبب لتعاون الإمام مع القوم؟

والذي يُعرب عن ذلك، أنّ للإمام مقامين:

١. مقام المناشدة والاحتجاج.

٢. مقام بيان سبب تعاونه مع القوم.

وكلّ يختلف عن الآخر، ولذلك نرى الإمامعليه السلام في المقام الأوّل قد احتج بالنصّ في غير واحد من المواقف، وهانحن نذكر موقفاً واحداً ممّا احتج فيه بحديث الغدير.

روى أحمد في مسنده وقال: حدّثنا ابن نمير، حدّثنا عبد الملك، عن أبي عبد الرحيم الكندي، عن زاذان بن عمر، قال: سمعتُ عليّاً في الرحبة، وهو ينشد الناس من شهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خُمّ وهو يقول ما قال. فقام ثلاثة عشر رجلاً، فشهدوا أنّهم سمعوا رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول:«من كنت مولاه فعليّ مولاه».[1]

وهذه المناشدة رواها غير واحد من حفاظ الحديث وأئمتهم.[2]

ثمّ إنّ الكاتب استدلّ بقول الإمامعليه السلام«فَمَا رَاعَنِي إِلَّا ٱنْثِيَالُ النَّاسِ عَلَىٰ فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ...» أي إسراعهم وانصبابهم إلى بيعة أبي بكر.

أقول: إنّ هذه الفقرة تدلّ على عدم رضا الإمام بإسراع الناس إلى بيعة أبي بكر، فإنّ هذه الكلمة تستعمل فيما إذا فوجئ الإنسان بغتة ـ

---

١. مسند أحمد: ٨٤/١(مسند عليّ)

٢. لاحظ: الغدير: ٣٠٨/١.

بأمر لم يتوقعه ـ ومعنى الفقرة: أي ما أفزعني شيء بعد ذلك السكون الذي كان عندي، إلّا وقوع ما وقع من انثيال الناس. فأي كلمة أوضح من عدم رضا الإمام بهذا الانثيال؟

ثمّ إنّ الإمام لم يذكر اسم من انثال الناس عليه بل عبّر عنه بفلان، وهذا أيضاً شاهد آخر على عدم رضاه بذلك.

ثمّ إنّ انثيال الناس على بيعة أبي بكر، لم يكن أمراً طبيعياً، ولم يتمّ إلّا بعد شجار ونزاع بين المهاجرين والأنصار، ثمّ بين الأوس والخزرج من الأنصار، فعلى القارئ الكريم أن يطّلع على ما جرى في سقيفة بني ساعدة في ذلك اليوم من كلمات ولطمات وضربات، فصارت نتيجة ذلك تغلّب طائفة على أُخرى، فمَن أراد أن يقف على ما جرىٰ في السقيفة من الحوادث المرّة فعليه أن يقرأ ما روي منها في «تاريخ الطبري» و«السيرة النبوية لابن هشام»، ولا يسع المقام أن نذكر نصوص كلماتهما، وإنّما نشير إلى بعضها.

الحوادث المرّة في بيعة السقيفة

قال ابن هشام ـ ناقلاً عن عُمر ـ:... فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمّل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة، فلما جلسنا تشهّد خطيبهم ثم قال: أمّا بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفّت دافة من قومكم، يريدون أن يحتازونا من أصلنا

ويغصبونا الأمر... إلى أن قال: فلمّا سكت تكلّم أبو بكر وقال: أمّا ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهل له ولم تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش، هم أوساط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (عُمر، وأبو عبيدة الجراح) فبايعوا أيّهما شئتم.

إلى أن قال: قال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المُحكَّك وعُذيقها المُرجّب، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش، قال: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، إلى أن قال: فقال عمر لأبي بكر: ابسط يدك لأبايعك، فبسط يده فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار. ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت(عمر): قتل الله سعد بن عبادة.

هذا ما يذكره ابن هشام في السيرة النبوية[١]، وقد حذف كثيراً ممّا نقله الطبري في تاريخه!!

ثمّ إنّ قيس بن سعد لمّا رأى أنّ أباه قد وقع في ورطة الهون يُنزى عليه، أخذ بلحية عُمر قائلاً: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة، أو: لو خفضت منه شعرة ما رجعت وفيك جارحة.[٢]

١. السيرة النبوية:٦٥٩/٢ـ ٦٦٠.

٢. تاريخ الطبري:٢٢٢/٣، حوادث سنة ١١هـ.

ثمّ إنّ الحوادث المرّة لم تتوقّف عند هذا الحدّ، بل تلتها حوادث مخزية أُخرى، نشير إلى شيء منها إجمالاً وهي أنّ جمعاً من المهاجرين تحصّنوا في بيت علي عليه السلام لائذين بدار النبوة رافضين البيعة. وعندئذٍ بعث إليهم أبو بكر عمرَ بن الخطاب وقال له: إن أبَوا فقاتلهم، فأقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: «يابن الخطّاب أجئت لتحرق دارنا» قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأُمّة.[1]

وهذا هو الذي يصفه الكاتب بالانتخاب الحرّ!!!

وقد أدرج تلك القصة شاعر النيل في القصيدة العمرية تحت عنوان (عمر وعلي)، قال:

وقولة لعليٍّ قالها عُمرُ
أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرّقتُ دارك لا أُبقي عليك بها
إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفصٍ يفوهُ بها
أمامَ فارس عدنان وحاميها[2]

أفيصح أن يوصف هذا النوع من البيعة بأنّه بيعة حُرّة وليس

---

١. العقد الفريد:٢/٢٥٠؛ تاريخ أبي الفداء:١/١٥٦؛ بلاغات النساء:٣/١٢٠٧.

٢. ديوان حافظ إبراهيم المصري:٨٢.

على رؤوس المسلمين سيف؟!

وبما أنّ دراسة ما وقع في السّقيفة وما بعدها من الحوادث يوجب إطالة الكلام، لذا نجعجع بالقلم عن الإفاضة.

***

الشبهة الثالثة

قال الكاتب: وفي وصية من وصاياه يقول: «هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ ٱلْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ ٱلْأَمَنَةَ (الأمنيه). منها: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذٰلِكَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ.

وَإِنَّ لِا بْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيَامَ بِذٰلِكَ إِلَىٰ ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَىٰ الَّذِي...».(١)

ثم قال:

أ. لم يفرّق في قضية الصدقة بين بنيه كلّهم: لا الحسنين ولا

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٤.

غيرهم! هذا أوّلاً.

ب. أمّا الأمر الآخر المهم، فهو قوله: إنّه جعل القيام لابني فاطمة، لا لنص في الولاية والإمامة، كلا. بل ابتغاء وجه الله.(١)

والجواب: أمّا عن الأمر الأوّل: فإنّه وإن سوّى بين ابني فاطمة وغيرهما في الصدقة، ولكنّه جعل التولية لابني فاطمة وعلله بقوله: «ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ» وفي تعليله عليه السلام إشارة إلى امتيازهم عن سائر أبناء علي عليه السلام.

في كلام الإمام ازراء بمَن صرف الأمر عن أهل البيت

وفي كلامه عليه السلام إشارة رمز وإزراء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله ﷺ مع وجود من يصلح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرياسة بعده لأهله قربة إلى رسول الله ﷺ وتكريماً لحرمته وطاعة له. فالفقرة على خلاف المقصود أدلّ.

وعن الثاني أنّ لكلّ كلام مقاماً ولكلّ مقام مقالاً، فليس الإمام بصدد بيان إمرته وخلافته أو إمرة أولاده وخلافتهم حتى يستدلّ بالنص، بل بصدد بيان السبب الذي دعاه إلى جعل تولية الصدقة

---

١. قراءة راشدة: ١١.

لابني فاطمة، وعلّله بما ذكره، فليس المقام لبيان كونه منصوصاً للإمامة وكون ابنيه منصوبين لها حتى يعتمد عليه.

ثمّ إنّ في كلام الكاتب شيئاً، يقول: وهذه وصيّة، والوصية تكون آخر ما ينطق به الرجل لأهل بيته، ولا يجوز تأخير البيان.[١] لا أظن أنّ هذا الكلام يحتاج إلى الردّ فإنّ الوصية لا يشترط فيها أن يكون الموصي قد قرب من أجله، فقد ورد في السنّة الشريفة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حقّ امرئ مسلم أن يبيت ليلتين وله شيء يوصي فيه، إلّا ووصيته مكتوبة عنده».[٢]

***

الشبهة الرابعة

قال الكاتب: قال الإمام علي عليه السلام: «ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَىٰ ٱلْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا ٱللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَىٰ كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ. فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ

---

١. قراءة راشدة:١٢.

٢. مسند أحمد:١٠/٢؛ سنن ابن ماجة:٩٠١/٢.

إِلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ ٱلْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ ٱلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّىٰ ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذٰلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ».(١)

ثم قال الكاتب: يُستفاد من كلام الإمام أنّ الوالي أو الخليفة أو المنصّب لحكم الناس إنّما هو إنسان ليس معصوماً لأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ربط صلاح الوالي بصلاح رعيته، فلو كان النصّ كانت العصمة، فلا يكون للكلام معنى حينئذٍ.(٢)

الجواب: إنّ الكاتب تصوّر أنّ في صحيفة الوجود ـ على القول بالنص في أمر الولاية والخلافة ـ والياً واحداً معصوماً من كلّ ريب وشين، فرتّب على ذلك قوله: فإذا كان الوالي إنساناً معصوماً لا يكون لكلامه عليه السلام حينئذٍ معنى، ولكنّه غفل عن أنّ الإمام يتكلّم عن كلّ نظام خاضع للقانون سواء أكان على رأسه إمام معصوم أم غير معصوم، فهو لا يستقيم إلّا إذا كانت بين الوالي والناس حقوق متبادلة، كما يقول: «فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ ٱلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّىٰ ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

٢. قراءة راشدة: ١٢ـ١٣.

ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذٰلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ».

كلام الإمام بيان رسميّ للدول كلّها

إنّ كلام الإمام عليه السلام بيان رسمي عالمي للدول كلّها من غير نظر إلى أن يكون على رأس الدولة إمام معصوم أو غير معصوم.

نفترض أنّ دولة على رأسها إمام معصوم ولكن هل يصلح المجتمع بوجود ذلك المعصوم، مع أنّ ولاة أمره على الأمصار والأقطار غير مطيعين له؟ ونحن نرى أنّه عليه السلام كان يشتكي من عدد من ولاته الذين نصبهم لولاية الأمر.

هذا كتابه لابن حنيف، قال:«أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْفٍ! فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».[١]

وفي كتاب له إلى زياد بن أبيه ـ وهو خليفة عامله عبد الله بن

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل برقم ٤٥.

عباس على البصرة ـ قال:«وَإِنّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ ٱلْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ ٱلْأَمْرِ، وَالسَّلاَمُ».[1]

ثمّ إنّ الكاتب استشهد على مرامه ـ عدم النص على الإمامة ـ بقول الإمام عليه السلام: « وَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ ٱلْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا ٱلْكَافِرُ،...»[2].

الجواب: إنّ الكاتب لم ينقل كلام الإمام على وجهه التام، فإنّ كلامه عليه السلام كان موجّهاً للخوارج لمّا سمع قولهم: «لا حكم إلّا لله»، فعندئذٍ قال: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلّٰهِ. وَلٰكِنَّ هٰؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلّٰهِ. وَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ».

فإنّ الإمام عليه السلام بصدد نقد قول الخوارج، الذين يرفضون وجود أي حاكم منصوص أو مختار، برّ أو فاجر، فبيّن الإمام عليه السلام أنّ المجتمع بحاجة إلى حاكم، وأنّ وجود حاكم جائر أفضل للمجتمع من عدم وجوده، حيث ينجر الأمر إلى الفوضى، وليس الإمام في مقام بيان شروط الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يستدل بالنص.

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٠.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٠.

ولعمر الحقّ أني لفي عجب شديد من استدلال الكاتب بوجوه لا صلة لها بما يرتئيه!!

***

الشبهة الخامسة

قال الكاتب: وفي كلام له وجّهه إلى طلحة والزبير، بعد بيعتهما له بالخلافة:«لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ ٱسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ! وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي ٱلْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا ٱسْتَنَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَىٰ رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ ٱلْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُما مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيما قَدْ فَرَغَ ٱللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَٱللهِ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هٰذَا عُتْبَىٰ. أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا

وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ».[١]

أقول: استنبط الكاتب من هذه الخطبة أُموراً تؤيد ـ حسب نظره ـ موقفه، وقال:

أ. هنا يقول الإمام لطلحة والزبير: «أَلَا تُخْبِرَانِي...» ولم يقل لهما: إنّكما تعلمان أنّ رسول الله ﷺ أخبر بتوليتي، ولم يورد أيّ أثر حول الإمامة واستحقاقه لها نصّاً.[٢]

عدم وقوف الكاتب على مقصود الإمام من الاجابة

الجواب: إنّ الكاتب غفل أو تغافل عن موقف الخطبة وعن اعتراض الزبير وطلحة، وجواب الإمام لهما، فقد اعترضا عليه عليه السلام بأنّه ساوى بينهما وغيرهما في العطاء من بيت المال، وكانا يقولان: ولّ أحدنا البصرة، والآخر الكوفة. فصار الإمام في موضع الإجابة عن اعتراضهما فقال: «أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟».

فالاعتراض والدفاع يكونان مركّزين على ادّعائهما أنّ الإمام منعهما من حقّهما، وكان جواب الإمام أنّه لم يمنعهما من حقّ ثابت لهما.

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٥.

٢. قراءة راشدة: ١٤.

وأمّا أنّ الإمام منصوص عليه بالإمامة من جانب الله أو من جانب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يكن موضع البحث والنزاع حتى يستدلّ الإمام بوجود النصّ.

ب. ثمّ إذا كان هناك نصّ فكيف يتخلّف عنه الإمام؟ كان يجب أن يسارع في التصدّي لأمر الخلافة، لا أن يقول: «والله ما كانت لي في الخلافة... غيركما»، فلم يكن منه قبول الخلافة إلّا بعد دعوة الناس له وحمله عليها.[1]

ما هو السبب لرفض الإمام بيعة الناس له؟

الجواب: إنّ الخلافة الواقعية المنصوص عليها من الله سبحانه كانت موضع رغبة للإمام عليه السلام وهو لم يرفضها عبر حياته، وإنّما رفض الحكومة الظاهرية التي يمنحها الناس له، فهذه هي التي يصفها الإمام بقوله:«وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي ٱلْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا» فهذه هي التي لم تكن للإمام فيها رغبة ولا إربة، ولكنّه لما تمّت الحجّة على الإمام بأنّ الواجب الشرعي في هذه الفترة التي قتل فيها عثمان واجتمع الناس حوله، أن يجيب دعوة الناس لئلا ينثلم الأمر ويتوسّع الخلاف والشقاق في الأُمّة، قام بأمر الخلافة وقبلها.

---

١. قراءة راشدة:١٤.

ويشهد على ما ذكرنا أنّهم لمّا اجتمعوا حوله في بيته قال: «دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ» فهذا هو الذي أعرض عنه الإمام، لكن واجهه كلام القوم حيث قالوا له: ننشدك الله! ألاترى الفتنة! ألا ترىٰ إلى ما حدث في الإسلام! ألا تخاف الله!

فعند ذلك أجاب الإمام دعوتهم قائلاً: قد أجبتكم لما أرى منكم... ـ حتى أكّدوا على ذلك ـ وقالوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك.[١]

ج. ثمّ هنا يضع لنا حقيقة ناصعة، وهي: أنّ المسلم، والحاكم على وجه خاص، عليه النظر في الكتاب والسنّة.[٢]

الجواب: ماذا يُريد من هذه الكلمة، فأي مسلم ينكر تلك الحقيقة الناصعة حتى يجعلها الكاتب في عداد الاعتراضات.

د. ثمّ هو ﷺ يقول: «فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَىٰ رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا»، لم يحتج إلى آراء الصحابة، لأنّ عنده من نصوص الكتاب والسنّة ما أغناه عن آراء

١. تاريخ الطبري: ١٥٢/٥.

٢. قراءة راشدة: ١٤ـ١٥.

الرجال، ولو وقع حكم لم يعلمه لاستشار المسلمين، ممّا يدلّ على نفي العصمة والإمامة عنه.(١)

ما هو المراد من قول الإمام «لم أرغب عنكما»؟

الجواب: إنّ قوله عليه السلام: «فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَىٰ رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا» إلى أن قال: «وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا» كلام صادر عن الإمام عليه السلام لأجل تلطيف قلوبهما وردعهما عن الخروج عليه، والقضية الشرطية (ولو كان ذلك) لا تلازم تحقّق الشرط كقوله سبحانه: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾.(٢)

على أنّ موضع السؤال إنّما هو عن الموضوعات لا الأحكام، ولوكانت الاستشارة فيها دليلٌ على عدم العصمة فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أَولى أن يُتّهم به، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يستشير أصحابه في غير مورد من الموارد امتثالاً لقوله سبحانه: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...**﴾.(٣)

هـ. ثم انظر إلى دعائه في ختام الكلمة تدرك أن الرجل غير معصوم.(٤)

الجواب: إنّ دعاء الإمام عبارة عن قوله: «أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا

١. قراءة راشدة:١٥.

٢. الأنبياء:٢٢.

٣. آل عمران:١٥٩.

٤. قراءة راشدة: ١٥.

وَقُلُوبِكُمْ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ ٱلصَّبْرَا»، وهو لم يدعُ بهذا الدعاء إلّا لأجل تليين قلبي الشيخين وإنّما عطف نفسه عليهما تلطّفاً وعرفاناً.

على أنّه لو كان هذا الدعاء دليلاً على عدم العصمة، لشمل إبراهيم الخليل ويوسف الصدّيق عليهما السلام حيث إنّهما دعوا الله تعالى بأن يكونا من الصالحين، كما في قوله تعالى:﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.[٢] كما أنّ المسلمين كافّة والنبي خاصّة يطلبون الهداية فيقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. على أنّ الإنسان بحاجة إلى تسديد الله سبحانه عبر حياته من غير فرق بين المعصوم وغيره. ويكفي في الدلالة عليه أدعية الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، قال النبي يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.[٣]

إلى غير ذلك من الأدعية التي أُمر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو المسلمون عامّة في كتاب الله العزيز.

***

١. الشعراء:٨٣.

٢. يوسف:١٠١.

٣. يوسف:٣٣.

الشبهة السادسة

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ ٱللهِ فِيهِ. فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ ٱسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَىٰ قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ ٱلْإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَىٰ ذٰلِكَ سَبِيلٌ، وَلٰكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَىٰ مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلاَ وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ٱدَّعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ».[1]

وبعد أن أورد الكاتب هذا النص من الخطبة ـ بلا مقدّمة ـ قال: أُريد من القارئ أن ينعم النظر في هذا الكلام، ما معنى «أَحَقَّ النَّاسِ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ»؟ ويجب أن نعلم بأنّ الخطبة أمام حشود من الناس، (هذا الأمر) يعني أمر الخلافة والإمامة والحكم، لم يقل: من نصّ عليه، وهم الأئمة الأطهار آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم.[2]

احتجاج الإمام جدال بالأحسن

الجواب: لقد أمر الله تعالىٰ المسلمين بأن يحتجّوا بأحد أُمور ثلاثة، وقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٣.

٢. قراءة راشدة: ١٥.

وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[١]

والجدال عبارة عن الاحتجاج بمسلّمات الخصم، وقد ورد أمير البيان عليه السلام من هذا الباب محتجّاً على جماعة من المسلمين بأنّ الإمامة لا تنعقد إلّا بالبيعة والاختيار، ولكنّهم كانوا يعترضون على خلافة عليٍّ بعدم مشاركة سائر المسلمين في البيعة كمعاوية وعمرو ابن العاص وأتباعهما فصار الإمام عليه السلام يحتجّ عليهم بمسلّماتهم، ويقول:

أوّلاً: إنّ الحجر الأساس للخلافة أمران:

١. أقواهم عليه.

٢. وأعلمهم بأمر الله عليه.

فلو كنتم مسلِّمين بذينك الأمرين فأنا (أمير البيان عليه السلام) على رأس هذين الأمرين، فقد شهد تاريخ الإسلام على أنّه الأقوىٰ على تحمّل المسؤولية، كما شهدت القضايا والحوادث على أعلميته في عصر الخلفاء الثلاثة.

ثمّ أجاب عليه السلام عن مغالطتهم بقوله: «وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ ٱلْإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَىٰ ذٰلِكَ سَبِيلٌ، وَلٰكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَىٰ مَنْ غَابَ عَنْهَا» أي أهل المدينة يحكمون على أهل الشام الذين غابوا.

---

١. النحل:١٢٥.

ثم احتجّ على المتمرّدين على خلافته بقوله: «ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ».

أقسم عليك بالله أيّها القارئ، هل هذا الموضع يناسب أن يحتجّ الإمام بالنصّ عليه، حتى يشغب الشاغب بالإنكار، أو يناسبه الاحتجاج بمسلّمات القوم وبما يُتفق عليه من قبل الطرفين؟

وبذلك يُعلم أنّ كلام الإمام: «وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ» استدلال على أساس الجدل لا على أساس البرهان.

فخرجنا في هذا الأصل بأنّ ما استدل به الكاتب من كلمات الإمام علي عليه السلام على عدم النص في المبحث الأوّل استنباط شخصي نابع عن عقيدة مسبقة، وناشئ عن عدم التأمّل في مواضع عديدة من كلام الإمام عليه السلام.

هداه الله وإيّانا إلى الصراط المستقيم.

تمّ الكلام في المبحث الأوّل، ويليه المبحث الثاني في العصمة.

***

المبحث الثاني

العصمة

ابتدأ الكاتب هذا المبحث بقوله: **المبحث الثاني: العصمة.**

ثم قال: من العقائد الإسلامية في الأنبياء«العصمة» بحيث إنّ من نفاها عنهم يكفر، كما أنّها لا تثبت لغيرهم، وهذا عليّ‌عليه‌السلام ينفيها عن نفسه.[1]

ثمّ إنّ الكاتب استدلّ على ما يرتئيه بعدد من كلمات الإمام، نأت بها تباعاً:

الشبهة الأولى

١. يقول في دعاء له (كان يردّده كثيراً): «ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّـذِي لَـمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَـقِيماً، وَلَا مَـضْرُوباً عَـلَىٰ عُـرُوقِي بِسُـوءٍ، وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَأ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلَا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّباً

١. قراءة راشدة: ١٧.

بِعَذَابِ ٱلْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي. لَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي.

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَٱلْأَمْرُ لَكَ!

ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ ٱلْهُدَىٰ ٱلَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!».(١)

توضيح دعائه عليه السلام

أقول: إنّه عليه السلام حمد الله تعالى باعتبار ضروب من النعم اعترف بها وعدّ منها عشرة وهي الحياة والصحّة والسلامة إلى آخر ما ذكره.

ثمّ عقّب ذلك الحمد بالإقرار على نفسه بصفات الخضوع والذلّة لغاية استنزال الرحمة، وعدّ منها خمسة، وهي كونه عبداً مملوكاً لله تعالى، ثمّ كونه ظالماً لنفسه، ثمّ كونه معترفاً بحجة الله عليه، ثمّ كونه معترفاً بعدم استطاعته أن يأخذ إلّا ما سبب الله له الوصول إليه، وأنّه لا يقدر أن يتّقي من المضار إلّا ما وقاه الله إيّاها.

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٢٠٦.

ثمّ إنّه وعد نفسه بهذه الإقرارات بقبول الرحمة من الله.

هذا حاصل دعائه. ثم إنّ الكاتب استدل على أنّه عليه السلام غير معصوم، بالفقرات التالية: ١. «اسوأ عملي». ٢. «وظالماً لنفسي». ٣. «أضلّ في هداك». ٤. «نذهب عن قولك». ٥. «نفتتن عن دينك». ٦. «تتابع بنا أهواؤنا».

فاستنتج الكاتب من هذه العبارات أنّها تدلّ على الخضوع وعدم العصمة وخوف الذنب.[١]

الجواب: رفع الشبهة رهن بيان أمرين:

الأوّل: إنّ الإمام عليه السلام بصدد تنزيل الرحمة، ومن كان في هذا المقام يعظّم الله تبارك وتعالى أفضل تعظيم ويحقّر نفسه ويُذلّها حتى يستنزل بذلك رحمته وكرمه.

فما في كلام الكاتب حيث يقول تدلّ على الخضوع، صحيح، لكنّه ليس هذا من خصائص الإمام علي عليه السلام فقط؛ بل أنّ جميع الأنبياء والأولياء في أدعيتهم ومناجاتهم يجلّلون الله تبارك وتعالى وفي الوقت نفسه يخضعون لله غاية الخضوع.

فالأنبياء والأولياء وغيرهم من الموجودات الإمكانية مصونون من الذنب والخطأ بعون وتسديد من الله سبحانه وعناية منه، ولو انقطعت الصلة بينهما لزالت العصمة عنهم.

---

١. لاحظ: قراءة راشدة:١٧.

هذا هو النبي يوسف الصدّيق عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.(١)

وهذا هو كليم الله موسى بن عمران عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢).

الإمام في مقام استنزال الرحمة وتعليم الناس

الثاني: إنّ الألفاظ التي استدلّ بها الكاتب على عدم العصمة لا تدلّ على شيء، لأنّه غفل عن أنّ المقام مقام استنزال الرحمة، أوّلاً، وتعليم الناس الدعاء ثانياً.

أمّا قوله عليه السلام: «وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَأ عَمَلِي» ففيه: إنّه إن دلّ على عدم العصمة لعمّت البلية ولزم أن يكون أشرف الأنبياء ـ نعوذ بالله ـ غير معصوم لأنّه كان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم الاعتراف بسوء الأعمال.

فقد ورد في مستهل خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».(٣)

كما أنّ خطباء الجمعة والجماعة كلّهم يفتتحون خطبهم بهذه

---

١. يوسف:٣٣.

٢. القصص:٢٤.

٣. المناقب لابن المغازلي:١٦؛ العمدة لابن البطريق:١٠٤.

العبارة وأمثالها، فهل لنا أن نتّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخطباء عامّة بالأعمال المسيئة، كما اتّهم الكاتب عليّاً بذلك؟!

ولو كان الكاتب عارفاً بمقامات الأنبياء والأولياء، وأنّهم يعدّون أعمالهم المباحة أو المكروهة، من سيئات أعمالهم ـ حيث أُثر عنهم قولهم: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» ـ لما جعل ذلك وسيلة للاتّهام بعدم العصمة.

وأمّا قوله: «ظَالِماً لِنَفْسِي» فقد اقتدى علي عليه السلام بكليم الله موسى عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.(١)

فكم فرق بين ظلم النفس والظلم المتوجّه إلى الله، فالثاني عمل الفسّاق والعصاة، وأمّا الأوّل فهو منطق الأولياء حيث يعدّون ما كان غير حرام ظلماً على النفس، وإنقاصاً لها، والظلم في الآية وكلام الإمام عليه السلام بمعنى النقص الذي هو المعنى الأصلي للفظ.

وأمّا قوله: «نفتتن عن دينك» أو «تتابع بنا أهواؤنا» فكلّ ذلك التجاء إلى الله سبحانه، فالأنبياء والأولياء معتصمون بحبل الله سبحانه في حياتهم الفردية والاجتماعية، فهم غير مستغنين عن توفيقات الله ونعمه. وعلى هذا فالمراد الافتتان بسبب النفس الأمّارة والالتجاء إلى الله منها هو شيمة الأنبياء، يقول يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ

---

١. القصص:١٦.

نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.(١) وكذلك قوله تعالى ـ حكاية دعاء يوسف عليه السلام ـ: **﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**(٢).

وهذا هو نوح عليه السلام فإنّه بعد أن سأل الله عن سبب هلاك ابنه قائلاً: **﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾**،(٣) ردّ عليه سبحانه قائلاً: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** وعندئذٍ استشعر نوح أنّه صدر منه عمل ـ وهو نبي معصوم ـ يحتاج به إلى الاستغفار من الله تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**.(٤)

وأخيراً نقول: إنّ العارف إذا أدرك ما لله سبحانه من العظمة والجبروت وأدرك نعمه وكرمه عليه واستشعر أنّ ما قام به من الأعمال العبادية دون شأنه سبحانه، اعترف بقصوره قائلاً: «ما عبدناك حقّ عبادتك ولا عرفناك حقّ معرفتك» ودعاء علي عليه السلام دعاء عارف بالله سبحانه مستغرق في جماله وجلاله، فالاستدلال في هذا المقام بهذه الكلمات نابع عن الغفلة عن موقف الأولياء عند الدعاء..

***

---

١. يوسف:٥٣.

٢. يوسف:٣٣.

٣. نوح: ٤٥.

٤. نوح:٤٧.

الشبهة الثانية

ومن كلام له عليه السلام: «أَنْتُمُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ، وَٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْجُنَنُ يَوْمَ ٱلْبَأْسِ، وَٱلْبِطَانَةُ دُونَ (يوم) النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ ٱلْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ ٱلْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ (جليّة) مِنَ ٱلْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ؛ فَوَٱللهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِالنَّاسِ!».[1]

فاستنتج الكاتب من كلامه هذا عدم عصمته قائلاً: المعصوم لا يحتاج إلى رأي الناس مادام مسدّداً من الله تعالى، بل أنّ هناك من ينفي مسألة الشورى، فهذا علي عليه السلام يقول: «فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ ٱلْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ؛ فَوَٱللهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِالنَّاسِ!» وهل يطلب المعصوم النصيحة؟ وفوق ذلك يطلب منهم أن لا يغشّوه في مناصحة، لأنّه بشر قد يخدع بمناصحة الآخرين والمتظاهرين بالخير.[2]

الغاية من استشارة المعصوم تكريم الأُمّة

الجواب: إنّ استشارة الإمام المعصوم ليس بمعنى جهله بما هو الأصوب، بل الغاية منها ومن الاستماع إلى آرائهم هو تكريمهم، حتى يحمّلهم المسؤولية ويجعلهم مشتركين في اتّخاذ القرار،

---

١. نهج البلاغة: الخطبة١١٨.

٢. قراءة راشدة:١٧.

والدليل على ذلك أنّه قد قال هذا الكلام بعد فراغه من حرب الجمل، فصار المقام مستحقّاً لأن يثني عليهم ويجعلهم كالوزراء أو المستشارين لدولته...

ولو كان مثل هذا دليلاً على عدم العصمة، فيلزم ـ نعوذ بالله ـ اتّهام النبي بذلك، حيث إنّه استشار في غير واحدة من الغزوات، منها استشارته في غزوة بدر، والأحزاب.

قال ابن هشام: وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم (إليه)، ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، ثمّ إنّه استشار الأنصار قال: أشيروا علي أيّها الناس.[١]

أضف إلى ذلك: أنّ أصحاب العصمة يتعاملون مع الناس بمقتضى الظواهر لا بمقتضى العلم بالغيب، فإنّما يصدرون عنه في مواقع خاصّة، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعتُ له من مال أخيه شيئاً، فإنّما قطعتُ له به قطعة من النار».[٢]

***

١. السيرة النبوية لابن هشام:٢/٦١٤ـ ٦١٥.

٢. الوسائل:١٨، الباب ٢ من أبواب كيفية الحكم، الحديث ١؛ مسند أحمد:٦/٣٠٧، بمضمونه، وكذا في مجمع الزوائد:٤/١٩٨.

الشبهة الثالثة

قال الكاتب: ثمّ انظر إلى دعائه الفذّ عليه السلام، وهو يسأل الله بقوله: «وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِثِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».

مع أنّه من العشرة المبشّرين بالجنة، إلّا أنّه لم يتّكل على هذا، بل كان دائم الخوف من الله تعالى، فهو لا يأمن على نفسه الفتنة، لهذا يسأل الله تعالى الثبات في الأمر في هذا الدعاء.[١]

دعاؤه للجميع لا لنفسه وحده

الجواب: إنّ الكاتب لم ينقل كلام الإمام بتمامه، فإنّ كلامه في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يدعو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: « ٱللَّهُمَّ ٱقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَٱجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ ٱلْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. ٱللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَىٰ بِنَاءِ ٱلْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ ٱلْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَٱلْفَضِيلَةَ، وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِثِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».[٢]

قوله عليه السلام: خزايا: جمع خزيان وهو الخجِل المستحيي، مثل:

---

١. قراءة راشدة:١٨.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٠٦.

سكران وسكارى.

ناكبين: أي عادلين عن الطريق.

ناكثين: ناقضين للعهد.

أمّا الدعاء فيشتمل على ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه، فيدلّ على إجلال عظيم وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينقل عن أحد من الصحابة ما نُقل عنه عليه السلام في تكريم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعلي عليه السلام بعد أن مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كلامه ودعا له بقوله:«وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ ٱلْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَٱلْفَضِيلَةَ»، انتقل إلى الدعاء لنفسه ولسائر المسلمين، قائلاً: «وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِثِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».

فلو كان الدعاء لنفسه خاصّة، لكان لتوهُّم الكاتب محلّ، ولكنّه عليه السلام كان يدعو للجميع، ومن المعلوم أنّ الجميع لم يكن معصوماً من الزلّة والضلال.

على أنّ في كلامه تلويحاً إلى بعض معاصريه ممّن يدّعون أنّهم من أتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّهم كانوا على غير هذه الأوصاف، فمَن نظر إلى كلامه ولم يتّخذ موقفاً مسبقاً لأدرك أنّ الخطبة على خلاف ما يرتئيه الكاتب، أدلّ.

***

الشبهة الرابعة

قال الكاتب: ثم هو يقول لأصحابه: «فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشْوَرَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ ٱللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَالَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَىٰ مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ».[1]

ثمّ إنّ الكاتب استدل بالفقرات التالية على عدم عصمة الإمام عليه السلام، وقال:

١. طلب الإمام من أصحابه بأن لا يبخلوا عليه بالمشورة، لأنّه إنسان يخطئ ويصيب.

٢. قوله: «فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي» فهذا نصّ على عدم عصمته.

٣. قوله: «فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ».[2]

الغاية من المشورة استقطاب عواطف الحاضرين في صفين

الجواب: أمّا الفقرة الأُولى فإنّ الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

٢. قراءة راشدة:١٨ـ١٩.

بصفّين وهو يواجه القاسطين، الجائرين، العادلين عن الحقّ، فمثل ذلك الموقع يقتضي المشورة(لا لأنّه إنسان يخطئ ويصيب)، وإنّما لاستقطاب عواطف أصحابه، فلو كانت المشورة دليلاً على عدم العصمة، فلازم ذلك ـ نعوذ بالله ـ أن نتّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدمها. والعجب أنّ الكاتب يعلّل المشورة بأنّه إنسان يخطئ ويصيب، مع أنّها إحدى العلل، ولكن في المقام علّة أُخرى أشرنا إليها، وهي أنّ المدير الناجح الذي يسعىٰ لتحقيق أهدافه السامية مع جماعات يرون لأنفسهم منزلة ومكانة فيها، لا يستغني عن التشاور معهم، حتّى يتعرّف على آرائهم فيزنها مع ما يحمله من الأفكار، وبذلك يستقطب عواطفهم وميولهم، لذلك أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالمشورة في مهامّ الأُمور من الموضوعات لا في الأحكام، وقد اقتفى وصيُّ الرسول إثر رسول الله.

وأمّا الجواب عن الفقرة الثانية، أعني قوله:«فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي»، فالكاتب قصر نظره على المستثنى منه، وغفل أو تغافل أنّه استثنى ذلك وقال: «فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ ٱللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي»، فالفقرة ابتداء وانتهاء تشير إلى ضابطة كلامية، هي أنّ الإنسان ـ بما هو إنسان ـ ليس بفوق أن يخطئ.

وهذه هي طبيعة الإنسان، لكنّه إذا شملته العناية الإلهية لا

يرتكب الخطأ والزلل، وبما أنّ الإمام قيّد كلامه بقوله: «إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ ٱللهُ...» فهو دليل على أنّ الله سبحانه يصونه عن الخطأ والضلال. ونظير ذلك قوله سبحانه ـ على لسان يوسف عليه السلام ـ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

ونظيره أيضاً، قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.[٢]

فتقدير الآية ـ: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، ولكنّه رأى ولم يهمّ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى ما ذكرنا في بعض خطبه، قال: «وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً».[٣]

فالإمام مصون من الخطأ بعصمة من الله سبحانه.

وأمّا الجواب عن الفقرة الثالثة، أعني قوله: «فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ».

ترىٰ أنّ الكاتب بتر كلام الإمام عليه السلام، وإليك نصّ خطبته، قال: «فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا

١. يوسف: ٥٣.

٢. يوسف: ٢٤.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٩٧.

نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَىٰ مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ».

ثمّ يظهر من صدر الخطبة أنّ جماعة من أصحابه كانوا يتكلمون معه بما يتكلّم العبيد مع الجبابرة، فنهاهم الإمام عليه السلام بقوله: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ ٱلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ ٱلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ ٱلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشْوَرَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي،...الخ».

فصار ذلك سبباً ليعدل عن كلامه هذا بقوله إنّه ومن معه عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره، فالتكلّم بما تُخاطب به الجبابرة على خلاف هذا الأصل لأنّ الجميع مربوبون.

ثمّ شرح عليه السلام أنّ ما لنا من النِّعم فهو من الله سبحانه، حيث قال: «فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ»، فهذه الفقرة تعبير عن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فما سوى الله ـ حسب الطبيعة ـ كانوا في ضلالة فهداهم الله، وكانوا في عمى فأعطاهم البصيرة، من غير فرق بين المعصوم وغيره.

ومثل هذا الكلام الناظر إلى طبيعة الإنسان ونـعم الله سـبحانه عليه، لا يتعارض مع العصمة، فكافّة البشر من غير فرق بـين نـبيّ ووليّ وغيرهما محكومون بما ورد في كلام الإمامعليه السلام حسب طبيعة البشر.

ثمّ إنّ الذين يؤمنون بالله ورسوله يخرجون من حكم الطـبيعة حسب استحكام إيمانهم وطاعاتهم، وربما تشـمل العـناية الإلهـية جماعة تبلغ بهم أعلى مراتب الكمال فيوصفون بالعصمة والطـاعة الخالصة من دون أيّ اختلاف بين الحكمين.

***

الشبهة الخامسة

قال الكاتب ـ في معرض استدلاله على نفي العصمة ـ: وكتب عهداً إلى بعض أصحابه جاء في آخره: «وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ ٱلْإِقَامَةِ عَلَىٰ ٱلْعُذْرِ ٱلْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي ٱلْعِبَادِ، وَجَمِيلِ ٱلْأَثَرِ فِي ٱلْبِلَادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ ٱلْكَرَامَـةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، «إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (راغبون). وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ».[1]

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٥٣.

وعلّق الكاتب على هذا الدعاء، بقوله: «وأن يختم لي ولك...»، فهو يدعو الله دعوة راغب راهب، لا معصوم لا يخطئ....[١]

اعتراف الإمام في مقام الابتهال لا ينافي عصمته

الجواب أوّلاً: إنّ الكاتب لمّا خلت يده من إقامة الدليل على عدم عصمة الإمام عليه السلام تمسّك بدعائه لله تعالىٰ.

ومن المعلوم أنّ الأنبياء والأولياء يبتهلون إلى الله بعبارات التذلّل والمسكنة ولوم النفس، ويصوّرون أنفسهم بأنّ ما يقومون به من العبادات والطاعات غير لائق بساحته عزّ وجلّ، فهذا النوع من التعبير موجود في عامّة الأدعية، فكيف يجعله الكاتب دليلاً على عدم العصمة؟!

وثانياً: إنّ الكاتب لم يستقم تعبيره عن موضع الفقرة حيث قال: «وكتب عهداً إلىٰ بعض أصحابه»، والحقّ أنّه كتبه للأشتر النخعي رضي الله عنه لمّا ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد وأجمع كتبه للمحاسن، وقد قصّر الكاتب في بيان موقع العهد.

يقول ابن أبي الحديد: الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه ويتعجّب منه ويفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد علي عليه السلام

---

١. قراءة راشدة: ١٩.

إلى الأشتر فإنّه نسيج وحده ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة، وهذا العهد صار إلى معاوية لمّا سمّ الأشتر، ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنىٰ في خزائن الملوك. ثم نقل عن صاحب الغارات: أنّه لمّا بلغ عليّاًعليه السلام أنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتدّ عليه حزناً.(١)

وكفى عظمة لهذا العهد أنّ جمعية حقوق البشر التابعة لمنظمة الأُمم المتحدة قد اتّخذت هذا العهد كسند ووثيقة سياسية لتجعلها منهاجاً في قضاياها وأحكامها.

والكاتب لم يقدّر هذا العهد ولذلك لم يُشر إلى ما في مطاويه من الآداب والقضايا والأحكام والسياسة، وقصر نظره على الدعاء الوارد في آخر العهد، وهو دعاء لا لنفسه خاصّة بل للمسلمين عامّة، ولكلّ من قرأ العهد، أفيكون ذلك دليلاً على أنّه غير معصوم؟!

فإنّ الكلام إذا كان للمسلمين عامة وهم بين معصوم وغيره، وعادل وفاسق، وقائم بالفرائض وتارك لها، يجب أن يكون بنحو يشمل الجميع ولا يصلح أن يكون دليلاً على عدم العصمة.

***

١. شرح نهج البلاغة:٦/٧٢ـ ٧٣.

الشبهة السادسة

قال الرضي رحمه الله: ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي و[قد] خان في بعض ما ولّاه من أعماله، قال عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيما رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً. تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَىٰ لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَىٰ جِبَايَةٍ (خيانة). فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هٰذَا، إِنْ شَاءَ ٱللهُ».[١]

أقول: قبل الردّ على الشبهة لنتعرّف على الجارود، وعلىٰ ابنه هذا.

أمّا الوالد فهو من قبيلة عبد القيس، وقد وفد على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع، وقيل في سنة عشر، وسكن البصرة، وقُتل بأرض فارس أو بنهاوند، وذلك في سنة إحدى وعشرين. ولمّا قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتدّت العرب خطب الجارود قومه فقال: أيّها الناس، إن كان محمد قد مات فإنّ الله حيّ لا يموت، فاستمسكوا بدينكم، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرة أو شاةٌ، فعَليّ مثلاه، فما

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٧١.

خالفه من عبد القيس أحد.[١]

وأمّا الولد فيكفي في حقّه قول الإمام علي عليه السلام: «إنه لنظّارٌ في عِطفيه، مختال في بُرْدَيْه، تَفّالٌ في شِرَاكَيْهِ».[٢]

أمّا قوله: «نظّار في عطفيه» أي جانبيه ينظر تارة هكذا وتارة هكذا، كما يفعل أرباب الزّهو، ومن يدّعي لنفسه الحسن والملاحة.

قوله: «مختال في بُرْدَيْه» أي يمشي الخيلاء عجباً.

قوله: «تَفّالٌ في شِرَاكَيْهِ» التفل ـ بالسكون ـ مصدر تفل: أي بصق، يُريد يتفل في شراكيه ويمسحهما ليعودا كالجديدين.

وقال شيخنا التستري في شرحه على نهج البلاغة في حقّ الولد: وأمّا الولد فقد ولد في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهد مع علي عليه السلام واقعة الجمل وولّاه اصطخر ثم عزله عنها، فمات في آخر سنة ٦١هـ، وكان المنذر متّهماً في دينه...[٣]

إذا وقفت على حال الوالد والولد، فلندرس الشبهة التي ذكرها الكاتب.

قال الكتاب: يدلّ هذا الكتاب دلالة لا وجه معها أنّ عليّاً أخطأت فراسته في هذا الرجل، وخُدع لما رأى من هيئة الصلاح

---

١. شرح نهج البلاغة:٥٧/١٨.
٢. نهج البلاغة: ذيل الرسالة رقم ٧١.
٣. مصادر نهج البلاغة:٤٧٠/٣.

والوقار، وما ظن أنّه لأبيه مشابه، ولاجتهاده تابع، فتخلفت فراسته، وخدعه عقله، وخُدع كما يخدع أيّ إنسان مخلوق في هذه الحياة.(١)

المعصومون يتعاملون مع الناس حسب الظواهر

الجواب: إنّ الأنبياء والأولياء يتعاملون في حياتهم حسب الأمارات وظواهر الأشخاص، ولو أُمروا بالتعامل حسب الغيب لاختلّت الأُمور. وممّا يدلّ على ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أرسل خالداً في سرية، وقد ارتكب هناك ما لا يرضاه الله ورسوله من الأُمور المنكرة، فلما اطّلع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على عمله قال: اللّهم إنّي أبرأ إليك ممّا فعله خالد.(٢)

فهل يصحّ للكاتب أن يصف النبيَّ المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: قد أخطأت فراسته، وخُدع كما يُخدع أيّ إنسان مخلوق في هذه الحياة.

والكاتب يزعم أنّ الأنبياء والأولياء والمحدَّثين من الأُمّة يجب عليهم تطبيق أعمالهم وفق ما يعلمون من الغيب!! ولو كان الأمر كذلك لاختلّت الحياة.

ثمّ إنّه ذيّل كلامه بما في دعاء عليّ عليه السلام إذا مدحه قوم في

١. قراءة راشدة:١٩ـ ٢٠.

٢. صحيح البخاري:٦٧/٤؛ مسند أحمد:١٥١/٢.

وجهه:«ٱللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ».(١)

قال: ولنسأل: ما معنى «خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ»؟ وما هو الذي يطلب الإمام من ربّه أن يغفر له.(٢)

أقول: قد وردت روايات كثيرة في كراهية مدح الإنسان في وجهه، وممّا ورد في ذمّ المدّاحين قولهﷺ:«احثوا التراب في وجه المدّاحين».(٣)

وقد ورد في الحديث المرفوع قوله:«إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنّما أمررت على حلقه موسى رَمِيضاً»(٤) فالإمامعليه السلام نهى المادح لأنّه على خلاف السنّة.

وأمّا قوله:«ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ» فليس فيه أي ثغرة في كلامه، حيث يدعو لنفسه أكثر ممّا في أذهان الناس من المحاسن والفضائل.

وأمّا قولهعليه السلام: «وَٱغْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ» فلا يُفهم منه عدم عصمته، بدليل أنّ الأنبياء كلّهم يستغفرون الله تبارك وتعالى.

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٠٠.

٢. قراءة راشدة: ٢٠.

٣. كنز العمال: ٥٧٤/٣.

٤. الفائق في غريب الحديث: ٨٨(وفيه: هو فعيل بمعنىٰ مفعول، من رَمَض السّكين يَرْمِضُه: إذا دقّه بين حجرين ليرقّ، ولذلك أوقعه صفة للمؤنث).

هـذا كـليم الله يـقول: ﴿رَبِّ اغْـفِرْ لِـي وَلِأَخِـي وَأَدْخِـلْنَا فِـي رَحْمَتِكَ﴾[١]، وهذا إبراهيم الخليل يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِـوَالِـدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.[٢] وهذا النبيّ سليمان يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.[٣]

وجه الاستغفار مع كونهم معصومين هو أنّهم يستصغرون طاعتهم وأعمالهم في جنب الله تعالىٰ، وكأنّهم لم يقوموا بشيء يليق بساحته، ولذلك عادوا يستغفرون، استغفار مستصغر لعبادته لا استغفار عاصٍ وطاغٍ، وقد روى القوم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إنّه ليُغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في اليوم مئة مرّة».[٤]

استدلال الكاتب بأدعية الإمام عليه السلام في مواقف مختلفة

ثمّ إنّ الكاتب أتى بأدعية الإمام عليه السلام في بعض المقامات، وقال: ومثله هذا الدعاء العظيم: «اَللّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ اَلْعُيُونِ عَلَانِيَتِي، وَتُقَبِّحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَىٰ رِيَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلَىٰ عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً

---

١. الأعراف: ١٥١.

٢. إبراهيم: ٤١.

٣. ص: ٣٥.

٤. صحيح مسلم: ٧٢/٨، وانظر: مسند أحمد: ٢٦٠/٤.

مِنْ مَرْضَاتِكَ».[١]

قوله: «لَامِعَةِ ٱلْعُيُونِ»، إضافة الصفة إلى الموصوف أي العيون اللامعة.

قال الكاتب بعد أن أورد الدعاء المذكور: أرجو من القارئ أن يتأمّل![٢]

ونحن تأمّلنا في كلام الإمام، فلم نر فيه شيئاً ينافي عصمته، وذلك لأنّه عليه السلام بصدد ذمّ الرياء وأن يُظهر الإنسان من العبادة والفعل الجميل ما يُبطن غيره، ويقصد بذلك السُّمعة والصِّيت لا لوجه الله تعالى، وقد جاء في الخبر المرفوع: «إنّ أَخوَف ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر. قالوا: ما الشِّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء»[٣]، فالإمام في حديثه هذا يذمّ المرائين لكن لا بلسانهم بل بلسان نفسه لئلّا يثير عواطفهم ضدّه، وهذا هو الرسم الدارج بين الحكماء والمصلحين إذا أرادوا تطهير المجتمع وتهذيب الأنفس من الرذائل، إذ يخاطبون أنفسهم حتى يتّعظ الآخرون. حاشا الإمام من فعل المرائين وأن يظهر للناس خلاف ما يبطن. والكاتب لم يقف على مقصد الإمام في كلامه هذا.

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ٢٧٦.

٢. قراءة راشدة: ٢٠.

٣. مسند أحمد: ٥/٤٢٩.

ثمّ إنّ الكاتب يستدلّ على دعاويه بدعاء آخر، ويقول: ومثله: «مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّىٰ أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ».(١). ثمّ يقول بعد أن ذكر الدعاء: أرجوك أخي القارئ! أن تتأمّل هذا الكلام وتُنزله منزلته من فعل الإمام، فالإمام بشر كسائر البشر، يهتم ويغتم ولا يدري ما يدار في هذا الكون، لأنّه لا يعلم الغيب.(٢)

الجواب: لا يخفى أنّ ما استنتجه الكاتب من كلام الإمام عليه السلام لا صلة له بما أراد، فإنّ الإمام بصدد الدعوة إلى التوبة واجتناب التسويف، وهذا ببيان أنّ الذنوب على قسمين:

١. ذنب تتبعه التوبة بسرعة، حيث يصلّي العبد بعده ركعتين. وهذا ما يصفه الإمام بقوله بأنّه لم يحزن بسببه، لأنّ الصلاة تكفّر الذنب.

٢. ذنب يرتكبه الإنسان دون أن يعقبه بالتوبة والنّدم. وهذا هو الذنب الذي يوجب القلق لأنّه لا يعلم متى يعاجله الموت وهو غير تائب.

بالله عليك أيّها القارئ إذا كان الواعظ يتكلّم بهذا الكلام عند الوعظ، فهل يوصف بأنّه كان يرتكب هذين القسمين من الذنوب؟

١. نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ٢٩٩.
٢. قراءة راشدة: ٢٠ـ ٢١.

ثمّ ماذا يريد الكاتب بقوله: الإمام بشر كسائر البشر... إلى آخر ما ذكر؟!

وفي كلام الإمام إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[1]، فالصلاة بعد السيِّئة تذهب السيئة، والإمامعليه السلام بصدد إعطاء ضابطة لكلّ من يقترف السيِّئة إذا كانت له مهلة بمقدار ركعتين، أن لا ينقطع رجاؤه، أمّا إذا كان أكثر فليتقّ الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ الإمام، وهو النموذج الأمثل والمعلم الأكمل، إنّما هو بصدد تأديب الناس وتهذيبهم بأن يسرعوا إلى التوبة ولا يجعلوا بين الذنب والتوبة أزيد من فواق ناقة أو أكثر من وقت ركعتين من الصلاة، والواعظ أو المؤدّب عندما يتكلّم يجب أن يتكلّم عن نفسه لئلّا يثير استياء الآخرين وتذمّرهم.

والمهمّ في موقف الكاتب أنّه زعم أنّ الإمام إنسان كبقية الناس يُريد أن يخبر عن نفسه، وغفل عن أنّه جالس في منصّة الخطابة والتعليم، وهناك لا يؤاخذ الخطيب والمؤدّب بظاهر كلامه.

ثمّ إنّ قولهعليه السلام في ذيل الكلام «وَأَسْأَلَ ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ» ليس في أكثر النسخ، نعم هو موجود في نسخة ابن أبي الحديد، ولا عبرة بالنسخ المأخوذة منه.

وأسوأ من ذلك أنّه استدلّ على عدم العصمة بقول

١. هود: ١١٤.

الإمام عليه السلام: «وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، والنَّصِيْحَةُ فِي ٱلْمَشْهَدِ وَٱلْمَغِيبِ».(١)

ولا أدري كيف يستدلّ بذلك؟ فإنّ صحابة الرجل تارة يكونون في حضرته ومشهده، وأُخرى يكونون بعيدين غائبين عنه، والإمام عليه السلام يقول يجب عليهم أن يخلصوا في عملهم سواء أكانوا في محضري أو بعيدين عنّي.

إلى هنا تمّ ما توهَّم من الشُّبه على عدم عصمة الإمام عليه السلام ثم إنّه انتقل إلى أمر آخر، زاعماً أنّه وقف على أكبر الدلائل وأعظمها على عدم العصمة، وهي الوصية التي كتبها الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام.

***

الشبهة السابعة

قال الكاتب تحت عنوان الوصية: وهذه وصية مهمة يوصي بها عليّ ابنه الحسن، ولأهمّيتها أرجأتها إلى آخر كلامي حول العصمة.(٢)

قبل أن نذكر المقاطع التي اختارها المؤلّف من الوصية، نتكلّم حول الوصية وأهميتها، فنقول: تُعدّ هذه الوصية أطول كتاب كتبه الإمام بعد العهد الذي كتبه للأشتر النخعيّ. وكان الإمام عليه السلام قد كتب

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣٤.

٢. قراءة راشدة: ٢١.

وصيّته هذه بـ«حاضرين» عند انصرافه من صفّين. وبينما يقول الشريف الرضي رحمه الله أنّه كتب هذه الوصية لابنه الحسن عليه السلام[١] يذكر الشيخ الصدوق أنّه كتبها لابنه محمد ابن الحنفية.[٢]

ثمّ إنّ هذه الوصية ليست وصية عادية ـ سواء أكان المخاطب ابنه الإمام الطاهر الحسن أو ابنه الآخر محمد ابن الحنفية رحمه الله ـ يكتبها الموصي ليعمل بها الوصيّ بعد وفاته، بل هي في الحقيقة نفحات من الكلم الطيّب في العلم والدين والحكم والآداب والأخلاق والمعارف ودرر الكلم ولآلئ الحكم، ففيها منية المريد وبغية المحدّث ومأرب الواعظ الناصح، ونجعة المتكلّم المصلح، فكلّ يصدر من عين معين، والغاية تهذيب المجتمع نفساً وأخلاقاً.

ثمّ إنّ من السنن الحميدة للمصلحين أن يتّخذوا من أحبّ الناس إليهم مخاطبين لنصائحهم ومواعظهم، لئلّا يثيروا حفيظة الآخرين، ولكن المخاطب الحقيقي هو أفراد المجتمع، وإن شمل المخاطب الظاهري ـ أيضاً ـ لفظاً ومعنى.

ثمّ إنّ شمولها لابنه الحسن لا ينافي كونه معصوماً بعيداً عن

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١.

٢. انظر: من لا يحضره الفقيه: ٣٨٤/٤، برقم ٥٨٣٧، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ١٤١٤هـ. ويؤيّد هذا قول النجاشي في ترجمة الأصبغ بن نُباتة أنّه روى عن عليّ عليه السلام عهد الأشتر، ووصيّته إلى محمد ابنه. رجال النجاشي: ٦٩/١ برقم ٤.

الرذائل، لأنّ شمولها بالإرادة الاستعمالية لا ينافي خروجه عن الإرادة الجدّية. وبيان ذلك : إنّ الإنسان بما هو إنسان، وحسب الطبع وحسب كونه موجوداً ممكناً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فيكون مظنّة للغيّ والضلال، ولكنّه عندما تشمله العناية الإلهية يخرج عن مقتضى الطبع بعصمة من الله سبحانه.

وهذا هو النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم المعصوم الأوّل يخاطبه الوحي الإلهيّ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾،[1] فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بما أنّه موجود ممكن، غير محكوم بشيء من أوصاف الكمال، ولمّا شملته العناية الإلهية خرج عن مقتضى الطبع الإمكاني، وصار مهديّاً، متخلّقاً بأعلى الأوصاف والفضائل، بعيداً عن الرذائل.

فالسبط الأكبر الحسن عليه السلام بالمقياس الأوّل من مصاديق ما جاء في الوصية من الصفات التي سنوردها، وبالمقياس الثاني خرج عن كونه من مصاديق هذه الصفات نهاية وحسب الإرادة الجدّية. وكيف لا يكون كذلك وهو معصوم بنصّ الكتاب (آية التطهير)، ومن قرناء الكتاب في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»؟

١. إنّ الإمام كتب هذه الوصية لابنه الحسن بعد أن قد ذرّف على الثلاثين وصار من رجالات المجتمع، وذا شخصية بارزة فيه، وقد شارك أباه في جهاد الناكثين والقاسطين في وقعتي الجمل وصفّين،

---

١. الضحى:٧.

حتى أنّ أباه لمّا رآه يتسرّع إلى الحرب في وقعة صفّين، قال:«آمْلِكُوا عَنِّي هٰذَا ٱلْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ - يَعْنِي ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ عليهما السلام - عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم».[١]

فلو كان الغرض من كتابة الوصية تهذيب الحسن عليه السلام وتربيته والأخذ بيده إلى مكارم الأخلاق، فكان على أمير المؤمنين أن يكتبها قبل سنين حينما كان الحسن حدثاً يقبل كلّ شيء، كما صرّح به الإمام في أثناء الوصية، وقال:«وَإِنَّمَا قَلْبُ ٱلْحَدَثِ كَالْأَرْضِ ٱلْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ».[٢]

وكلّ ذلك شاهد على أنّ الإمام اتّخذه - إذا كانت الوصيّة له - مخاطباً في الظاهر، ولكن المخاطب حقيقة جميع أفراد المجتمع.

يقول ابن أبي الحديد في شرح قوله عليه السلام:«ٱلْمُؤَمِّلِ مَالَا يُدْرَكُ»، قال:الأظهر أنّه لم يُرد ذلك، وإنّما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة.[٣]

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٧.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١، الفقرة ٢٢.

٣. شرح نهج البلاغة: ٥٣/١٦.

٢. ما ذكرنا من أنّ من أُلقي إليه الخطاب قد يكون غير مقصود واقعاً، له نموذج واضح في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[1]، فهل يُتصوّر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يطيع الكافرين والمنافقين حتى يتوجّه إليه النهي؟! كلّا وحاشا نبيّ العظمة صلى الله عليه وآله وسلم ذلك؛ بل أنّ الخطاب موجّه إليه في الظاهر، ولكنّ المقصود نهاية هم المؤمنون جميعاً.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[2] وهل يسوّغ لمفسّر أن يستنبط من الآية أنّه لا فرق بين الأنبياء وخاتمهم وبين سائر الأشخاص، في مظنّة الإشراك بالله، فأين العصمة إذاً التي يدّعيها المسلمون؟

٣. إنّ هذا العهد الطويل لا يقصد به ابنه الحسن أو محمد ابن الحنفية، فإنّ تأديب أحد الشخصين لا يتوقّف على كتابة هذا العهد الذي يشتمل فيه على أُصول الحكم والعظات والنصائح.

***

ثمّ إنّه عليه السلام ذكر لنفسه في ديباجة العهد أوصافاً سبعة، ولولده أربعة عشر وصفاً. أمّا أوصاف نفسه، فهي:

---

١. الأحزاب:١.

٢. الزمر:٦٥.

أوصاف الوالد

١. **من الوالد الفان،** حذفت الياء هاهنا للازدواج بين الفاني والزمان، ووصفه بالفان باعتبار غايته أو ما يؤول إليه.

٢. **المقرّ للزمان،** أي المعترف بالعجز عن معالجة حوادث الزمان.

٣. **المدبر العمر،** لأنّه عليه السلام كتبه وقد ذرّف على الستين.

٤. **المستسلم للدهر،** وهو أبلغ من المقرّ للزمان.

٥. **الذامّ للدنيا،** لأنّه عليه السلام كان نافراً عن الدنيا ومنفّراً بذكر معايبها.

٦. **الساكن مساكن الموتىٰ،** أشار إلى أنّه سيموت، ولعلّه اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.(١)

٧. **الظاعن عنها غداً،** وهو تذكير بالمفارقة «وغداً» كناية عن وقتها المعجّل.

إلى هنا تمّ بيان أوصاف الإمام لنفسه.

وأمّا أوصاف الولد فهي كما قلنا أربعة عشر وصفاً، وقد استنتج الكاتب من أوصافه عدم عصمة المكتوب إليه، وقد مرّ أنّ هذه الأوصاف وصف لعامّة الناس، وقد وجّه الخطاب لولده لئلّا يثير حفيظة الآخرين لما مرّ من أنّ كثيراً من الأوصاف بل جميعها من أوصاف عامّة الناس لا الحسن خاصّة ولا ابن الحنفية، على أنّه قد مرّ

---

١. إبراهيم:٤٥.

أنّ شمولها للحسن عليه السلام لا ينافي كونه معصوماً، وأن يكون فوق هذه الأوصاف.

أوصاف الولد

١. «ٱلْمُؤَمِّلِ مَالَا يُدْرَكُ»، وفيه تنفير عن طول الأمل، إذ أنّ طول الأمل ينسي الآخرة. وقد ورد عن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:«يشبّ ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان: الحرص و الأمل».

٢. «السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ»، يعني سفرهم من الدنيا إلى الآخرة.

٣. «غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ»، لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأغراضها.

٤. «وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ»، استعار لفظ الرهينة باعتبار أنّ وجوده مربوط بالأوقات كما يربط الرهن بيد مرتهنه.

٥. «وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ»، وهو كقوله: «غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ».

ثمّ إنّ هذه الأوصاف هل تختصّ بالحسن عليه السلام أو بابن الحنفية... أو هي من خصائص جنس البشر؟ وقد مرّ أنّ ابن أبي الحديد قال: إنّما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة، ألاترى إلى قوله

بعدها:«السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ» فإنّ كلّ واحد من الناس يؤمّل أُموراً لا يدركها، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله.[١]

وقس عليه ما سيوافيك من الأوصاف فإنّها من خصائص الناس، إنّما اتّخذ الإمام ولده البارّ موضعاً للخطاب لئلّا يثير تذمّر المستمعين الآخرين.

٦. «وَعَبْدِ الدُّنْيَا»: أي طالب الدنيا منقاد بطبعه إليها.

٧. «وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ»: أي تجارته لها غرور وغفلة عن المكاسب الحقيقية الباقية، ولعلّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾.[٣]

٨. «وَغَرِيمِ ٱلْمَنَايَا»، لفظ الغريم مستعار باعتبار طلب الموت له.

٩. «وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ»، استعار له لفظ الأسير باعتبار انقياده للموت وعدم تمكينه للخلاص.

١٠. «وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ»، لأنّ الهموم لا تفارق الإنسان في حياته

---

١. شرح نهج البلاغة:٥٣/١٦.
٢. المنافقون:٩.
٣. النور:٣٧.

إلّا من تجرّد عن حبّ الدنيا.

١١. «وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ»، فبما أنّ الهموم لا تنفكّ عن الأحـزان، صار قريناً للأحزان.

١٢. «وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ»، وهو نظير قوله:«وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ».

١٣. «وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ»، فإنّ الإنسان غالباً مغلوب عند الشهوة، مقهور لها.

١٤. «وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ»، فيه تنفير عن الدنيا بتذكير الموت، فإنّ خليفة الأموات في معرض اللّحاق بهم.(١)

ثمّ إنّ الكاتب جعل ما ذكره الإمام في حقّ الولد دليلاً على عدم عصمته، قال:

أ. انظر أيّها القارئ الكـريم وتـمعّن فـي هـذه الكـلمات «إلى المولود المؤمّل... وخليفة الأموات»، وهل يكون معصوماً مَن يُسمّيه عليّ: «عبد الدنيا» و«تاجر الغرور»؟

ب. بل انظر إلى عباراته التي تنبئ عن رفـض العـصمة رفـضاً قاطعاً، فهو يُسمّيه «صريع الشهوات».(٢)

أقـول: إنّ اسـتنتاج الكـاتب مـبنيّ عـلى أسـاس واه، وهـو أنّ

---

١. راجع في تفسير هذه الصفات شرحي نهج البلاغة لابن ميثم البحراني وابن أبـي الحديد.

٢. قراءة راشدة:٢١ـ٢٢.

الإمام عليه السلام كتب هذه الوصية خاصّة لولده الحسن فاستنتج من ذلك ما استنتج غافلاً أو متغافلاً عن أنّ الإمام عليه السلام كواعظ مِصقَع يُريد إصلاح المجتمع عن طريق وصيّة من هذا الطراز، والغاية توجيه الخطاب إلى ابنه كتوجيه الخطاب في قوله سبحانه:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾[1]، أو كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ...﴾[2]، فالمولىٰ جلّ شأنه يخاطب النبيّ أوّلاً ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ولكنّه ينتقل إلى خطاب المؤمنين ويقول: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

ثمّ إنّ جميع ما استنتجه الكاتب من كلام الإمام عليّ عليه السلام على عدم عصمة الإمام الحسن، كلّها من هذا القبيل ولذلك لا نذكر كلّ ما ذكره عقب كلام الإمام في ذلك العهد، فإنّ جواب الجميع واحد.

---

١. الأحزاب:١.

٢. الطلاق:١.

المبحث الثالث

الصحابة

قال الكاتب: انطلاقاً من ثناء الله جلّ وتعالى على الصحابة وثناء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم نجد علياً عليه السلام يثني على إخوانه مبيّناً ما يكنّه لهم من محبّة. وسنتكلم في هذا المبحث عن الصحابة، ونرجئ الكلام عن معاوية وأهل الشام إلى مبحث آخر.[1]

أقول: قبل أن ندرس ما استدلّ به الكاتب من كلام الإمام على ثنائه على الصحابة، يجب أن نبيّن موقف الشيعة من هذه المسألة، فإنّ المعاندين يعرّفون الشيعة بأنّهم يسبّون الصحابة، وهي تهمة مختلقة، والسبّ عمل النّوكى، وهم لا يسبّون واحداً منهم، بل يصنّفونهم على أصناف تبعاً للذكر الحكيم، وستعرف أنّ موقف الشيعة هو عين موقف الإمام عليه السلام من الصحابة، لا يختلف عنه ذرة

---

١. قراءة راشدة:٣٤.

واحدة.

لا شكّ أنّ حبّ الصحابة من مظاهر حبّ النبي ﷺ وقد اشتهر: أنّ من أحبّ شيئاً أحبَّ آثاره ولوازمه، فمَن أحبّ الرسول ﷺ فقد أحبّ المتعلّمين على يديه، والمجاهدين دونه.

هذا ما لا غبار عليه ولا خلاف فيه، إنّما الكلام في أنّ مجرّد صحبة النبي ﷺ سواء أكانت قصيرة الأمد أم طويلة، هل تجعل الصحابي إنساناً مثالياً بعيداً عن المعاصي، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها طول عمره؟! على حدّ يكون الجميع جازوا القنطرة، أو أنّ صحبة الرسول ﷺ تؤثّر في سلوك الصحابيّ وأخلاقياته، وأنّ كلّ مَن صحبه يستضيء بنوره وبيانه حسب قابلياته واستعداداته؟! ولا يكون الجميع في صفّ واحد ودرجة واحدة من التقى والصلاح، ولأجل ذلك ظهر هنا اتّجاهان:

اتّجاهان في عدالة الصحابة

أحدهما: عدالة الصحابة برُمّتهم استغراقاً في حبّهم ونزولاً عند حكم العاطفة لصاحب الشريعة وأنصاره، وهو خيرة جمهور أهل السنّة.(١)

ثانيهما: أنّ صحبة الرسول ﷺ تؤثّر في سلوك الصحابيّ

---

١. راجع: مقالات الإسلاميين: ٣٢٣/١؛ كتاب السنّة: ٤٩.

وأخلاقياته حسب قابلياته، فمنهم من بلغ بالصحبة قمّة الكمال حتى أصبح يُستدرّ به الغمام، ومنهم من لم يبلغ هذا الشأن ولكن استضاء بنور النبيﷺ وحسُنت صحبته وسلمت سريرته، ومنهم من لم ينل إلّا حظاً قليلاً، وما هذا إلّا لتفريطه وتقصيره.

والنظرية الثانية هي خيرة الشيعة الإمامية ولفيف من غيرهم.

فما ذكره الكاتب من ثناء الله عزّ وجلّ على الصحابة وثناء الرسولﷺ، إن أراد به ثناء الله ورسوله على جميع الصحابة من أوّلهم إلى آخرهم، والذين يبلغ عددهم مئة ألف أو أكثر، فهو ادّعاء بلا دليل. وها نحن نذكر ثناء الله على الصحابة آية بعد أُخرى حتى يُعلم بأنّ الثناء إنّما هو بصورة القضية الجزئية، لا الكلّية، وقد تقدّم منّا إنّ عدالة قسم من الصحابة أمر متفق عليه لا يناقش فيه أحد من المسلمين، إنّما الكلام في دعوىٰ أنّ الجميع عدول لا تمسّ كرامتهم وعدالتهم شائبة شكّ. وإليك دراسة الآيات:

الآية الأُولى

قال تعالى:﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[١]

---

١. التوبة: ١٠٠.

الترضّي عن عدد خاص من الصحابة

أقول: إنّ ثناء الله ورضاه سبحانه لا يعمّ كلّ صحابيّ ولا يشمل كلّ مهاجر وأنصاريّ، بل يختصّ بقسم السابقين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة. ويشهد لما ذكرنا وجود «من» في قوله: ﴿**مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ**﴾ فالمرضيّ عنهم قسم من المهاجرين والأنصار، السابقين في الهجرة والنصرة، لا عامّة المهاجرين والأنصار. ولعلّ المراد من السابقين من الأنصار هم الذين بايعوا النبيّ ﷺ في البيعتين الأُولى والثانية، وقد بلغ عدد المبايعين من الأنصار في العقبة الأُولى اثني عشر رجلاً، وفي العقبة الثانية قرابة السبعين، فهؤلاء هم الذين بايعوا للنصرة والدفاع عنه ﷺ إذا نزل بأرضهم.

كما أنّ المراد من السابقين من المهاجرين الطبقة الأُولى منهم، وهم الذين هاجروا قبل غزوة بدر.

وأين هؤلاء من ثناء الله على المئة ألف، أو الخمسة عشر ألفاً المثبتة أسماؤهم في كتب السِّيَر؟

ثمّ إنّه سبحانه عطف على السابقين من المهاجرين والأنصار قوله: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ**﴾ والمراد من التبعيّة كون عملهم نظير عمل السابقين في الهجرة والنُّصرة، وأمّا لو تخلّف، فلا.

الترضّي مشروط بثباتهم على الحقّ

ثمّ إنّ هاهنا نكتة، وهي أنّه سبحانه أثنى على التابعين من الصنفين المذكورين، لكنّه ثناء مشروط بالتبعيّة بإحسان، فلو كان هذا شرطاً في التابع فالأَولى أن يكون شرطاً لثناء الله للمتبوع، والمراد بالإحسان هو الإيمان والعمل الصالح. هذا هو الذي يُفهم من دراسة الآية، وبهذا يُعلم أمران:

١. لو ثبت بالدليل القاطع تخلف عدّة من الأصناف الثلاثة عن هذا الشرط في مستقبل حياتهم فيخرج عن كونهم ممن ترضّىٰ عنهم الباري عزّ وجلّ، لتخلّف الشرط.

٢. أنّه لا يُستدل بإطلاق الآية على عدالة كلّ صحابيّ أو مغفرة ذنوبه، سواء أطاع أم عصى، عمل سيئاً أو عمل صالحاً، بل على قسم من المهاجرين والأنصار بشرط ثباتهم على الحقّ وبقائهم على السيرة الحسنة إلى حين ارتحالهم عن هذه الدنيا.

الآية الثانية

قال تعالى:﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ

الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.(١)

في هذه الآية يصف سبحانه صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف خاصّة، هي:

١. ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾. ٢. ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

٤.﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾.

٥. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

الآية ناظرة إلى الذين جُمعت فيهم الخصال الخمس

وهنا نسأل الكاتب: هل كان جميع صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أوّلهم إلى آخرهم على هذه الأوصاف؟ فهل كانوا رحماء بينهم وأشدّاء على الكفّار؟ فلو كان الجميع على هذا الوصف فلماذا أشعلوا فتيل الحرب في الوقائع الثلاث: الجمل وصفين والنهروان، التي راح ضحيّتها الآلاف من الرجال؟ وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر عن هذه الوقائع المرّة، حيث قال للإمام علي عليه السلام: «ستقاتل بعدي القاسطين والناكثين والمارقين».(٢) وهذا الإخبار من دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه

---

١. الفتح:٢٩.

٢. لاحظ: مجمع الزوائد:١٨٦/٥، و ج٢٣٨/٧؛ كنز العمال:٢٩٢/١١.

إخبار صريح بالغيب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نحن نؤمن أنّ القرآن صادق مصدّق لا يخطأ في إخباره ولا يفارق الواقع رأس إبرة، فالجمع بينهما أنّ هذه الصفات المذكورة في سورة الفتح، صفات عدد منهم لا الصحابة قاطبة، الذين يبلغ عددهم مئة ألف أو أكثر.

ويشهد لقولنا ذيل الآية، حيث يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً﴾، فحرف الجرّ في قوله:﴿مِنْهُم﴾ للتبعيض لا للبيان، لعدم دخول «من» البيانية على الضمير.

الآية الثالثة

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.[1]

وقد استُدلّ بهذه الآية على عدالة الصحابة جميعاً مع أنّها لاتتحمّل ذلك، لأسباب:

١. إنّ رضا الله سبحانه في الآية تعلّق بمجموعهم،ولا يشمل كلّ فرد من الأفراد المبايعين تحت الشجرة، بدليل أنّ جماعة من

---

١. الفتح:١٨.

المنافقين بايعوا النبيّ ﷺ في ذلك الموضع، وفي مقدّمتهم عبد الله ابن أُبيّ وأذنابه.

ويشهد لذلك تغلغل المنافقين بين أصحاب النبيّ ﷺ، وإن كنت في شكّ فاقرأ ما يحكيه ابن هشام عن غزوة أُحد، قال: حتى إذا كانوا (النبي وأصحابه) بالشوط بين المدينة وأُحد، انخزل عنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيّها الناس؟ فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والرِّيب».(١)

٢. إنّ رضا الله سبحانه عن جماعة من الناس مشروط بأن تكون أعمالهم صالحة في البدء والختام وما بينهما، وأن لا يخرجوا عن الخط الرساليّ الذي خطّه رسول الله ﷺ. ويدلّ على ما ذكرنا ما رواه البخاري بإسناده عن سهل بن سعد الساعدي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ العبد ليعمل، فيما يرى الناس، عمل أهل الجنة وإنّه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس، عمل أهل النار، وهو من أهل الجنّة، وإنّما الأعمال بخواتيمها».(٢)، فلو دلّ دليل قاطع على اقتراف بعض الصحابة المعاصي وتنكّبه عن الطريق المهيع، فلا يخالف الآية.

---

١. السيرة النبوية: ٦٤/٢. وقد قدّر عددهم بثلاثمائة نفر.

٢. صحيح البخاري: ٢٠٧/٤ـ٢٠٨، برقم ٦٤٩٣.

٣. إنّ رضاه سبحانه كان محدّداً بزمان البيعة، لتعلّق الظرف (إذ) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالفعل (رضيَ)، فيكون المعنى: رضيَ الله عنهم في ذلك الحين.

ومن هنا لا يصحّ الاستدلال بالآية على عدالة هؤلاء في كلّ الأزمان وإلى آخر حياتهم، فوقوع الترضّي في ذلك الحين لا يمنع من مواقعة المعصية فيما بعد.

***

إلى هنا تمّ ذكر بعض الذرائع التي تمسّك بها القائلون بعدالة الصحابة جميعاً، وبقي الكلام فيما ادّعاه الكاتب من ثناء النبيّ ﷺ على الصحابة.

أقول: سلّمنا أنّ النبيّ أثنى على الصحابة في موقف خاص، ولكنّه أخبر عن ارتداد جمع منهم بعد رحلته، وقد روىٰ ذلك الشيخان في صحيحيهما، ولهذه الروايات أسانيد متعدّدة، فمن أراد فليرجع إلى المصدرين المذكورين:

أخرج البخاري عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «أنا فَرَطُكم على الحوض مَن وَرَده شرب منه، ومَن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، لَيرِد عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثمّ يُحال بيني وبينهم.

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عيّاش وأنا أُحدّثهم هذا،

فقال: هكذا سمعت سهلاً؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه قال: إنّهم منّي، فيقال: إنّك لا تدري ما بدّلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي».(١)

وقد بلغ عدد الروايات التي ذكرها الشيخان في هذا الشأن إلى عشر روايات. وها نحن نذكر الرواية العاشرة التي نقلها مسلم عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قال رسول اللهﷺ:«إنّي لعلى الحوض حتّى أنظر من يَرِدُ عليّ منكم، وسيؤخذ أُناس دوني، فأقول: يا ربّ منّي ومن أُمّتي، فيقال: أما شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم. قال: فكان ابن أبي مُليكة يقول: اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا وأن نفتن عن ديننا».(٢)

إلى هنا تمّ ذكر موقف القرآن الكريم والسنّة النبوية من نظرية عدالة الصحابة، وقد مرّ أنّ القضية بصورة جزئية، مورد اتفاق، وأنّ الخلاف في كليّة القضية، وحان وقت دراسة ما استدلّ به الكاتب من كلام الإمام عليعليه السلام حول الصحابة.

يُذكر أنّ ما استدلّ به من كلام الإمامعليه السلام في مورد الصحابة أكثره، أو جميعه، خارج عن موضع النقاش، واليك بيان ما استدلّ به:

---

١. صحيح البخاري:٣٥٥/٤، برقم ٧٠٥٠ و ٧٠٥١.

٢. شرح صحيح مسلم للنووي:٦١/١٥، برقم ٢٢٩٣.

الشبهة الأولى:

قال: قال الإمام عليعليه السلام واصفاً الرسول صلى الله عليه وآله مع أصحابه في القتال:«وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَىٰ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَٱلْأَسِنَّةِ».[1]

ثم قال الكاتب: فهل الرسولصلى الله عليه وآله يقي أُناساً لا يستحقّون، بأعزّ ما لديه وهم أهل بيته؟

ثم أُحبّ أن تتدبّر هذه الكلمات القليلة التي قالها الإمام، وتتفكّر فيها، وتنظر لماذا قال الإمام هذا الكلام؟[2]

عند عزوف الصحابة عن المقابلة يقدم النبي أهل بيته

الجواب: إنّ قراءة الكاتب لكلام الإمام قراءة غير صحيحة، بل فيها نوع من التمويه على القارئ، كما أنّها تؤول إلىٰ معنى لا يقصده الإمامعليه السلام، فقد ارتأى الكاتب أن لا يقف عند قولهعليه السلام: «وَأَحْجَمَ النَّاسُ» الذي يدلّ على الخوف الذي كان يعتري الصحابة من مواجهة الأعداء عند اشتداد الحرب، والعزوف عن الإقدام علىٰ لقائهم ومنازلتهم. والغاية التي يريد الإمام أن تُستخلص من كلامه، هي الوقوف على المزايا الفريدة التي يتّسم بها أهل البيت وفي

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٠.

٢. قراءة راشدة: ٣٤.

مقدّمتهم هو عليه السلام، والمكانة العظمىٰ لهم عند الله تعالى وعند رسوله، والتي لا يقاربهم فيها أحد من الصحابة، فهم (عصمة اللّائذين، وكهف المؤمنين).

ثمّ إنّنا نسأل الكاتب: ماذا يصنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا لم يقدّم أهل بيته ـ وهو يشهد إحجام الصحابة عن لقاء الأعداء وقت احمرار البأس؟

هل يترك الأعداء يكرّون على أصحابه، ويُمعنون فيهم طعناً وقتلاً وأسراً، وبين يديه أهل بيته، حماة الدين، وأصحاب النّجدة والشجاعة ورباطة الجأش، والجرأة في الإقدام على التضحية حبّاً بالشهادة ولقاء الله تعالى؟!

لا شكّ في أنّ تعرّض الصحابة لمقتلة عظيمة بسبب إحجامهم وجرأة العدوّ عليهم، يشكّل تهديداً لكيان الإسلام نفسه، إذ هم ـ في مجملهم وليس كلّ واحد منهم ـ المدافعون عنه في الحروب ـ إلّا ما اشتدّ منها ـ التي يشعلها الأعداء، وهم الممكّنون له في الأرض تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أحرص من أهل البيت ـ ولا سيما سيّدهم عليّ ـ على حماية هذا الكيان، الذي يبقىٰ قائماً بهم أوّلاً، وبالصحابة الصادقين المخلصين ثانياً؟

وأين هذا ممّا يحاول الكاتب أن يسوّقه من ثناء الإمام عليّ عليه السلام

على الصحابة كلّ الصحابة، وممّا توحي به عبارته من أنّهم جميعاً يستحقّون الوقاية؟ مع قوله:«وَأَحْجَمَ النَّاسُ» دليل على قدحهم.

وأخيراً: إنّ كلّ ثناء لصنف من الصحابة رهن الثبات على ما كانوا عليه، فإنّ الأعمال مرهونة بخواتيمها، كما رواه البخاري.(١)

***

الشبهة الثانية:

قال الكاتب: قال مرّة كلاماً هذا نصّه:

«إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ. وَإِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلّٰهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ قَاتَلُوهُ عَلَىٰ ٱتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ ٱللهُ مَا تَوَلَّىٰ».(٢)

ثم قال: إنّه نصّ ثمين، ذو قيمة عالية في فهم الأُمور في قضية الشورى والبيعة، وإليك بعض الملاحظات المهمة في هذا الأمر:

---

١. لاحظ: صحيح البخاري:١٨٨/٧، كتاب الرقاق.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٦.

أ. أُريد منك أن تقف طويلاً أمام(قوله) «بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ...» وتتساءل لماذا قال الإمام :إنّ هؤلاء القوم الذين بايعوا الخلفاء السابقين هم مَن بايعني؟ ولماذا يحدّد هؤلاء الناس في البيعتين؟ أو ليس هناك أمر مهم جدّاً يريد الإمام توضيحه؟ فأُولئك المبايعون لم يخرج أحد منهم على الخلفاء بطعن أو بدعة، ولا شيء آخر؛ فهكذا أنا بويعت.(١)

الاحتجاج ببيعة الصحابة احتجاج بمسلّمات الخصم

الجواب: إنّ الكاتب لم ينقل كلام الإمام عليه السلام كما هو عليه، حيث قال: «قال مرّة كلاماً حول البيعة»، ولكن الموجود في نهج البلاغة: «ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية» وإنّما حذفه لئلّا يُردّ عليه بأنّ الإمام عليه السلام إنّما يحتجّ على معاوية بعمل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من باب الجدل أخذاً بمسلّمات الخصم وردّاً عليه بها.

ويشهد لذلك أنّ الإمام عليه السلام بدأ رسالته إلى معاوية بقوله: «أمّا بعد: فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنّه بايعني القوم... إلخ». وهذا ما حذفه الكاتب مع أنّه ينقل كتاب الإمام عليه السلام عن الشرح الحديدي وهذا الكلام موجود فيه.(٢)

---

١. قراءة راشدة: ٣٤ـ٣٥.

٢. لاحظ: شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٣٥.

ب. قال الكاتب بعد ذلك: «ثمّ لو افترضنا أنّ عليّاًعليه السلام إنّما يريد أن يلزم خصمه بالحجّة...»[١]

الجواب: في البدء نسأل الكاتب: أين الافتراض من الجزم بأنّ الإمام أراد أن يلزم خصمه بالحجّة؟

ثمّ إنّ الإمام بعث هذا الكتاب مع جرير بن عبد الله البجلي، والناظر في الكتاب من أوّله إلى آخره يقف على أسلوب الإمام في الاحتجاج، فإنّ له في المقام منهجين:

١. الاحتجاج بحديث الغدير وأنّ النبيصلى الله عليه وآله وسلم نصّبه للخلافة في مشهد عظيم من الصحابة، وهذا ما يرفضه معاوية، ولذلك ترك الإمامعليه السلام الاحتجاج به.

٢. الاحتجاج بما يتبنّاه معاوية ويسلّم به، فإنّه يدّعي صحّة الخلافة للمشايخ الثلاثة، باعتبار بيعة الأنصار والمهاجرين لهم ويصف نفسه بأنّه يمشي بسيرتهم وعلى نهجهم فعند ذلك خاطبه الإمام بقوله:«إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ» فلماذا تتخلّف عن بيعتي، «وَإِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلّٰهِ رِضىً»،فلو صحّ هذا الكلام عندك فهؤلاء ـ أي رجال الشورى ـ اجتمعوا حولي وبايعوني وسمّوني إماماً، فأيّ فرق بين

١. قراءة راشدة:٣٥.

بيعتي وبيعة هؤلاء؟

وبذلك يُعلم أنّ الشارح الحديدي قد زلّت قدمه في ذلك حيث يقول: إنّ هذا الفصل دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة، كما يذكره أصحابنا المتكلّمون لأنّه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعقد له.(١)

فإنّ الشارح غفل عن موقف الإمام عليه السلام في كتابه هذا، وعن كيفية احتجاجه على معاوية، فلو كان الاحتجاج بغير طريق الجدل وكانت بيعة الأنصار والمهاجرين مورد رضا منه، فلماذا يعترض الإمام عليه السلام في غير واحدة من خطبه وكلماته على بيعة الأنصار والمهاجرين في السقيفة؟

قال الرضيّ رحمه الله: قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منّا أمير ومنكم أمير؛ قال عليه السلام: «فَهَلَّا آحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ آللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَصَّىٰ بِأَنْ يُحْسَنَ إِلىٰ مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟، فقال عليه السلام: لَوْ كَانَتِ الإمارةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنْ آلْوَصِيَّةُ بِهِمْ. ثم قال عليه السلام: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قَالُوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه السلام: آحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ».(٢)

١. شرح نهج البلاغة: ٣٦/١٤.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٦٧.

ولو كان كلامه هذا من صحيح عقيدته في أمر الخلافة، فلماذا اشتكى من تقمُّص ابن أبي قحافة الخلافة وقال: «أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلانٌ (ابن أبي قحافة) وَإِنَّهُ لِيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا».(١)

وبما ذكرنا يسقط ما ذيّل به الكاتب مقالته، حيث استدلّ بفقرات من هذه الرسالة على أنّ البيعة هي الطريق الصحيح في الخلافة(٢)، وقد ذكرنا أنّ الهدف من الرسالة هو الاحتجاج على معاوية الذي يدّعي التمسّك بأهداب الشورى وبيعة الأنصار والمهاجرين، فالإمام عليه السلام يبني على هذه الفكرة المسلّمة عند معاوية، ويستدلّ بها على صحّة إمامته وخلافته.

***

الشبهة الثالثة

قال الكاتب: وفي كتاب له لمعاوية يقول فيه: «أَلَا تَرَىٰ؟ ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلٰكِنْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالىٰ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ».(٣)

١. نهج البلاغة: الخطبة٣.
٢. لاحظ: قراءة راشدة:٣٥ـ٣٦.
٣. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٨.

يقول الكاتب: ماذا تجد في هذا الكتاب إنّه مدح وتعظيم لهؤلاء النفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلِكُلٍّ فَضْلٌ».

وأضاف: رحمك الله أبا الحسن! كنت تنزل الناس منازلها. وفي كتاب آخر يقول فيه: «وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ...». (١)

الجواب: إنّ ما اختاره الكاتب جزء من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتابه، قال الرضي رحمه الله عن هذه الرسالة: وهو من محاسن الكتب.

ثمّ إنّ الغاية من رسالة الإمام هذه هي إبطال مخطّط معاوية، وذلك لأنّه أذاع في الشام أنّه عليه السلام قتل عثمان ومالأ على قتله وأنّه قتل طلحة والزبير وأسّر عائشة وأراق دماء أهل البصرة، وبقيت خصلة واحدة وهي أن يثبت عندهم أنّه يتبرّأ من أبي بكر وعمر وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الخلافة، وأنّهما وثبا عليها غلبة، وغصباه إيّاها، فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه، بل وأهل العراق الذين هم جُندُه وبطانته وأنصاره، لأنّهم كانوا يعتقدون بإمامة الشيخين، إلّا القليل من خواصّ الشيعة، فلمّا كتب معاوية ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يُغضب عليّاً ويُحرجه ويحوجه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنّه أفضل المسلمين، إلى أن يخلط خطّه في الجواب بكلمة

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل برقم ١٧؛ قراءة راشدة:٣٦.

تقتضي طعناً في أبي بكر، فلمّا وصل الكتاب إلى عليّ، كتب جواباً به إطفاء الفتنة التي أشعلها ابن أبي سفيان[١]، فمَن قرأ كتاب الإمام من أوّله إلى آخره يقف على أنّه في هذا الموقف...

أضف إلى ذلك: نحن إذا غضضنا النظر عن كلّ ما ذكرنا، فإنّ كلام الإمام عليه السلام في مدح المستشهدين من المهاجرين والأنصار، وأيّ خلاف في كرامة هؤلاء، لكي يستدلّ بكلام الإمام عليها.

***

الشبهة الرابعة

قال الكاتب: وقال مرّة في وصف شدّة قتال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا: مَا يَزِيدُنَا ذٰلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيّاً عَلَىٰ اللَّقَمِ، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ ٱلْأَلَمِ، وَجِدّاً فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَٱلْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ ٱلْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا: أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ ٱلْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا. فَلَمَّا رَأَىٰ ٱللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا ٱلْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّىٰ ٱسْتَقَرَّ ٱلْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً (مبوّيا).

---

١. لاحظ: شرح نهج البلاغة: ١٥/١٨٥ـ١٨٦.

أَوْطَانَهُ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا ٱخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً!».(١)

ثمّ قال الكاتب: مَن هؤلاء الذين كانوا يقاتلون مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسمّهم علي عليه السلام أو ليسوا هم معظم الصحابة الذين نصروا الإسلام وعزّزوا مكانته، ونصروا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟

أين هذا من كلام الذين يتّهمون الصحابة بعدم نصرة الدين والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟(٢)

الجواب: اختلف شُرّاح نهج البلاغة في موضع كلام الإمام عليه السلام، يقول ابن أبي الحديد: وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في قصة ابن الحضرمي حيث قدِم البصرة من قبل معاوية واستنهض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة فتقاعدوا.(٣)

وقال الشارح البحراني: المنقول أنّ هذا الكلام صدر عنه يوم صفين حين أقرّ الناس بالصلح وأوّله: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحقّ ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء... إلى آخر ما ذكره.(٤)

وعلى كلّ تقدير، فالإمام بصدد تنبيه أصحابه على تقصيرهم

١. نهج البلاغة: الخطبة ٥٥.
٢. قراءة راشدة: ٣٦ـ٣٧.
٣. شرح نهج البلاغة: ٣٤/٤.
٤. شرح نهج البلاغة لميثم البحراني: ١٤٦/٢.

والمعنى: لو قصّرنا يومئذٍ (عصر الرسالة) كتقصيركم الآن وتخاذلكم، لما حصل ما حصل من استقامة الدين، وكنّى بالعمود للدين عن قوّته، ومعظمه كناية بالمستعار، وكذلك باخضرار العود للإيماء إلى نضارته في النفوس، ولاحظ في الأُولى تشبيه الإسلام بالبيت ذي العمود، وفي الثانية تشبيهه الإيمان بالشجرة ذات الأغصان.[١]

ولا أدري من يُريد الكاتب بهؤلاء الذين يتّهمون الصحابة بعدم النُّصرة؟ وما دليله على هذا الاتّهام؟ فلا أظن أنّ أحداً على وجه البسيطة يتّهم أصحاب النبيّ بما ذكر. نعم لم يكونوا في درجة واحدة من الإيمان في عصر الرسالة كما هو صريح الآيات القرآنية، كما لم يكونوا في النصرة كذلك، فكثير من الذين شاركوا في الغزوات جاهد وأبدىٰ شجاعة في مواجهة الأعداء وقاتل وقتل، ولكن هناك قسم منهم لم يكن لهم دور يُذكر في القتال، بل كانوا يفرّون عند احتدام المعركة.

اختلاف أصحاب النبيّ في أمر القتال والنصرة

وتشهد لذلك الحوادث المرّة في غزوة أُحد وحُنين. وبما أنّ إفاضة الكلام في هذا الموضوع خروج عن وضع الرسالة، نكتفي

١. شرح نهج البلاغة للبحراني: ١٤٨/٢.

بهذا الخبر الذي ورد في «السيرة النبوية» لابن هشام في غزوة أُحد.

قال: انتهى أنس بن النضر، عمّ أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ؛ فقال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ (قوموا) فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتل، وبه سمّي أنس بن مالك.[١]

وفوق ذلك كلّه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾.[٢]

وأمّا الحال في حُنين، فنقتصر على شيء يسير من أخبارها، يقول ابن هشام: لما حملت هوازن وشدّوا على المسلمين شدّة رجل واحد وانشمر الناس (انفضّوا وانهزموا) راجعين، لا يلوي أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلّا أنّه قد بقي

١. السيرة النبوية: ٨٣/٢، وانظر: تاريخ الطبري: ١٩٩/٢، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

٢. آل عمران: ١٤٤.

مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نَفَر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

إلى أن قال: قال ابن إسحاق، فلمّا انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جُفاة أهل مكّة الهزيمة، تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته.[١]

وحاصل الكلام: إنّهم كانوا على أصناف في النُّصرة والبذل والتضحية، كما أنّهم صاروا على أصناف في الثبات على الدين والتقوىٰ بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

الشبهة الخامسة

قال الكاتب: وفي كلام له يخاطب أصحابه الذين معه يقاتلون، قال موبّخاً لهم ومتذكّراً ما كان من السابقين من الصحابة:

«أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَىٰ ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَىٰ ٱلْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَىٰ أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا. لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ ٱلْمَوْتَىٰ، مُرْهُ ٱلْعُيُونِ مِنَ ٱلْبُكَاءِ، خُمْصُ ٱلْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ ٱلشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ ٱلْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَىٰ

١. السيرة النبوية: ٢/٤٤٣.

وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ ٱلْخَاشِعِينَ. أُولٰئِكَ إِخْوَانِي ٱلذَّاهِبُونَ. فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ ٱلْأَيْدِيَ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ».(١)

ثم قال الكاتب: مَن هؤلاء القوم الذين عناهم عليّ؟ وهم جمع وكثرة لا تحصى ومنهم أموات ومنهم أحياء؟

إنّ المنصف المحبّ للإمام علي لا يمكن إلّا أن يقرّ بأنّ هؤلاء هم أصحاب النبي.(٢)

الجواب: إنّ الكاتب يسأل مَنْ هؤلاء القوم الذين عناهم علي؟ وقد أجاب الشارح الحديدي عن هذا السؤال، حيث قال: هم قوم كانوا في نأنأة الإسلام وفي زمان ضعفه وخموله أرباب زهد وعبادة وجهاد شديد في سبيل الله، كمصعب بن عمير من بني عبد الدّار، وكسعد بن معاذ من الأوس، وكجعفر بن أبي طالب، وعبد الله ابن رواحة، وغيرهم؛ ممّن استشهد من الصالحين أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أُحد، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله، وكعمّار، وأبي ذر، والمقداد، وسلمان، وخبّاب، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة. وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنّ رسول الله قال: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة: عليّ، وعمّار، وأبي

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٠.

٢. قراءة راشدة: ٣٧ـ٣٨.

ذر، والمقداد».[١]

وهذا الكلام كسابقه لا صلة له بما يريد أن يسوّقه الكاتب من ثناء الإمام على الصحابة جميعاً، لما قلنا من أنّ طائفة من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خصوصاً الذين معه في الغزوات وأخلصوا الطاعة لله ولرسوله ـ كانوا رجالاً صالحين، ومع ذلك كانوا على أصناف حسب ما يذكره القرآن الكريم، ونحن نعطي كلّ صنف ما يستحقّه.

الشبهة السادسة

نقل الكاتب كلام الإمام عليه السلام للخوارج، وقال: سأذكره دون تعليق.[٢]

لمّا كان الكاتب عاجزاً عن إيجاد مناسبة بين كلام الإمام ومرامه ذكره بلا تعليق، إذ أيّة صلة بين ذمّ الخوارج وبين عدالة الصحابة وقداستهم من أوّلهم إلى آخرهم؟! ونحن أيضاً نعرض عن نقله ونقده.

الشبهة السابعة

قال الكاتب: وجاء في الكتاب من خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذمّ أهل الشام: «جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ

---

١. شرح نهج البلاغة:٧/٢٩٥ـ٢٩٦.

٢. قراءة راشدة:٣٨.

أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّىٰ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ. لَيْسُوا مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ».(١)

ثمّ قال: ينفي أن يكون هؤلاء من المهاجرين والأنصار الذين تبوءُوا الدار والإيمان، أو ليس هذا مدحاً للمهاجرين والأنصار الذين نفى أن يكون هؤلاء الجفاة الطغام منهم؟!(٢)

الجواب: بلىٰ، هذا مدح للمهاجرين والأنصار، ولكن ماذا في ذلك؟ وهل ثَمّة شبهة أو نزاع وشجار في أنّ معاوية وفئته الباغية الجفاة الطّغام، ليسوا من هؤلاء الكرام؟!

وكيف لا يستحقّون المدح ـ باستثناء من أساء منهم ـ وقد آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؟

وكيف لا يستحقّون المدح والثناء، وقد نصر الحقّ جُلّ مَن بقي منهم إلىٰ عهد الإمام؟ حيث جاهدوا بين يديهعليه السلام وقاتلوا المتمرّدين علىٰ خلافته الشرعية من الناكثين والقاسطين والمارقين. وممّا يشهد لذلك قول الإمام في كتاب له إلىٰ معاوية: «وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ».(٣)

ومن الواضح أنّ الإمام لم يقصد في مدحه كلّ المهاجرين

---

١. نهج البلاغة: الخطبة٢٣٨.

٢. قراءة راشدة:٣٩.

٣. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم٢٨.

والأنصار، فرداً فرداً، بدليل تلك الكلمات التي أطلقها الإمام نفسه في حقّ عدد منهم. ومن ذلك قوله في عثمان بن عفّان: «ٱسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ ٱلْأَثَرَةَ»[١]، وقوله فيه: «وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً»[٢] وقوله في طلحة والزبير ومن معهم من الناكثين: «فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ كَمَا تُجَرُّ ٱلْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ»، ثم قال مذكّراً بما ارتكبوه من أعمال قبيحة: «فَقَدِمُوا عَلَىٰ عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً»!![٣]

والكاتب لم يشأ أن يقرأ هذه الكلمات وأمثالها، لأنّها تفسد عليه قراءته الراشدة! وإن كانت ليست براشدة حتى فيما انتقاه من «نهج البلاغة».

الشبهة الثامنة

قال الكاتب: وقال مرّة: «وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ»[٤]، قال هذا في كتاب له إلى معاوية بن أبي سفيان.[٥]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣٠.
٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٨.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٢.
٤. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم١٧.
٥. قراءة راشدة:٣٩.

الجواب: استدلّ الكاتب بفقرة من كتاب الإمام عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه، وجاء في كتاب الإمام خطاباً لمعاوية: «وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا ٱلْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ ٱللهُ ٱلْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَىٰ حِينَ فَازَ (فات) أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ، فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَىٰ نَفْسِكَ سَبِيلاً، وَالسَّلامُ».[١]

فقوله: «وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾[٢]، وقد بيّنا ـ فيما سبق ـ مفاد الآية وأنّها بصدد بيان رضى الله سبحانه عن خصوص السابقين من المهاجرين والأنصار وليست بصدد تنزيه عامّة الصحابة وإثبات عدالتهم من أوّلهم إلى آخرهم. على أنّ رضاه سبحانه في فترة خاصة مشروط بخواتيم الأُمور.

الشبهة التاسعة

قال الكاتب: وقال مرّة عن الصحابة: «إِنَّمَا ٱخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ».[٣]

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ١٧.
٢. التوبة: ١٠٠.
٣. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣٢٣.

ثمّ قال: إنّ هذا معناه تسويغ الخلاف بينه وبين إخوانه من الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فالاختلاف لم يكن في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر ما ذكره.[١]

صلابة الإمام في حفظ كيان الإسلام

الجواب: إنّه لم يذكر الكاتب كلام الإمام عليه السلام بجميعه، قال الرضي رحمه الله: وقال لبعض اليهود حين قال له: ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه، فقال له: «إِنَّمَا آخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ»، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: **﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**[٢].

قال ابن أبي الحديد: وقد روي حديث اليهودي على وجه آخر؛ قيل: قال يهودي لعليّ عليه السلام: اختلفتم بعد نبيّكم ولم يجف ماؤه ـ يعني غُسله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال عليه السلام: «وأنتم قلتم: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم».[٣]

إنّ هذا الكلام يدلّ على صلابة الإمام عليه السلام في حفظ كيان الإسلام أمام الأعداء، حيث ردّ على اليهوديّ بوجود الفرق بين الاختلافين،

---

١. قراءة راشدة:٣٩ـ ٤٠.

٢. الأعراف:١٣٨.

٣. شرح نهج البلاغة:٢٢٥/١٩.

فأنتم أيّها اليهود اختلفتم في التوحيد الذي هو دعامة الدين الإلهي، وأمّا المسلمون فلم يختلفوا في التوحيد ولا في نبوة النبي ولا في المعاد، وإنّما اختلفوا فيما بينهم في أمر الخلافة، فالإمام وشيعته استندوا إلى أفعال النبيّ ﷺ وأقواله الدالّة على استحقاقه الإمامة (استحقاق اختصاص)، والقيام بالأمر بعد الرسول، بينما رأى آخرون غير ذلك. نعم اختلاف المسلمين في أمر الخلافة ليس كاختلاف بني إسرائيل في أمر التوحيد، والحديث يدلّ على وجود الاختلاف بين الإمام وشيعته وبين غيرهم من المسلمين.

الشبهة العاشرة

قال الكاتب: والآن سأورد خطبة أوردها شارح النهج. ثمّ ذكر الخطبة، وعلّق عليها بالقول: أيّ عاقل منصف أو قارئ محايد، لا يمكن إلّا أن يقرّ بأنّ علي بن أبي طالب ؑ إنّما يمدح هذين الخليفتين [يعني أبا بكر وعمر] بهذا الكلام.[١]

أقول: بما أنّ هذه الخطبة ليست من شرط كتيبه المعنون «قراءة راشدة لكتاب نهج البلاغة»، وإنّما أوردها شارح النهج، فلسنا معنيين بالتعليق على كلام الكاتب.

١. قراءة راشدة: ٤٠.

الشبهة الحادية عشرة

ادّعى الكاتب أنّه جاءت خطب كثيرة فيها مدح عمر تلميحاً، ثم ذكر كلاماً للإمام ادّعىٰ أنّه تصريح فيه، وهو: «لِلّٰهِ بَلَاءُ فُلَانٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ ٱلْأَوَدَ، وَدَاوَىٰ ٱلْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ ٱلْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ ٱلْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّىٰ إِلَىٰ ٱللهِ طَاعَتَهُ، وَٱتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ ٱلْمُهْتَدِي».[1]

ثمّ قال الكاتب: تأمّل هذه الكلمات في حقّ هذا الخليفة الراشد الثاني: أقام السنّة، ذهب نقيّ الثوب، قليل العيب.[2]

الجواب: أوّلاً: إنّ الكاتب جزم بأنّ هذا الكلمات في حقّ عمر، مع أنّ الشريف الرضيّ لم يعيّن الشخص الممدوح بهذه الكلمات! فالأمانة العلمية تفرض على الكاتب أن يشير إلى ذلك، ولكنّه لم يفعل.

وأمّا ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه:«وقد وُجدت النسخة التي بخط الرضيّ أبي الحسن جامع «نهج البلاغة»، وتحت «فلان»، «عُمر» حدّثني بذلك فخار بن معدّ الموسويّ[3]»، فلا يعدّ دليلاً تامّاً،

١. نهج البلاغة: الخطبة٢٢٨.
٢. قراءة راشدة:٤١.
٣. شرح نهج البلاغة:١٢/ ٣ـ٤.

لأنّه ليس هناك ما يُثبت أنّ ما كُتب تحت خطّ الرضيّ، هو بخطّه أيضاً، إذ من الممكن أن يكون بخطّ أحد متملّكي النسخة، خلال الفترة التي بلغت أكثر من قرنين، بين سنة كتابتها بخطّ الرضيّ(المتوفّى ٤٠٦هـ)، وبين السنة التي حدّث فيها السيد فخار (المتوفّى ٦٣٠هـ)ابن أبي الحديد بذلك.

وثانياً: إنّ الكاتب انتقىٰ هذا الكلام جازماً بأنّه في «عمر» مع أنّ الشريف الرضيّ ـ كما قلنا ـ لم يشر إلى الشخص المقصود به، ولكنّه(الكاتب) أعرض عن الكلام الذي يتعارض مع الكلام المنتقىٰ، ولا يشكّ أحد أنّه في «عمر» وأعني به ما ورد في الخطبة الشهيرة، المعروفة بالشِّقشِقيّة، قال عليه السلام وهو يتحدّث عن عهد أبي بكر بالخلافة إلىٰ عمر: «فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا (كلامها)، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا، وَٱلْاِعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ. فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ ٱللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَٱعْتِرَاضٍ؛ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».[١]

ومن المعلوم أنّه يُقدَّم، في مقام التعارض، ما هو بيِّن ومقطوع به، على ما ورد علىٰ وجه الدعوى والاحتمال.

---

١. نهج البلاغة: الخطبة٣.

وثالثاً: من الممكن أن يقصد الإمام بهذا الكلام أحد أصحابه الموالين له، كأن يكون حذيفة بن اليمان، فإنّ العبارات المذكورة تنطبق على الرجل وسيرته العطرة، فقد ولي المدائن لعمر بن الخطّاب، فأقام فيهم زاهداً ورعاً مصلحاً لبلادهم. وكان رضوان الله تعالى عليه من خيار الصحابة وفقهائهم، عالماً بالكتاب والسنّة. وكان قد أدرك بيعة الناس للإمام عليّ فسُرّ بها ودعا الناس إلى نصره ومؤازرته، قائلاً: «فوالله إنّه لعلى الحقّ آخراً وأوّلاً، وإنّه لخير مَن مضى بعد نبيّكم ومن بقي إلى يوم القيامة»، ثمّ أوصى ابنيه: سعيد وصفوان بملازمة الإمام واتّباعه، وتوفّي بعد ذلك بمدة قليلة، قيل: بعد أربعين يوماً، وقيل غير ذلك.[١]

الشبهة الثانية عشرة

قال الكاتب: ومن كلام له عليه السلام وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم، قال عليه السلام: «وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هٰذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ. إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هٰذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لَا يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ[٢] دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ

١. انظر: سير أعلام النبلاء: ٢/٣٦١، الترجمة ٧٦؛ أعيان الشيعة: ٤/٥٩٩.

٢. ويروى: كانفة.

إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَ ٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ ٱلْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ ٱللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ ٱلْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَ مَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ».(١)

ثمّ قال الكاتب: هذا كلام عليّ لابن الخطاب، وأُريدك أن تتأمّل: «لا يكن للمسلمين كهف»، «ليس بعدك مرجع»، «فإن أظهر الله... ومثابة للمسلمين».(٢)

الجواب: إنّ كلام الإمام هذا، لهو أفضل دليل على أنّه عليه السلام قد عمل بوظيفته في المشورة، وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «اعلم أنّ ضارب عليّ بالسيف وقاتله لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثم قبلتُ ذلك منه لأدّيتُ الأمانة».(٣)

وأمّا قول الإمام عليه السلام لابن الخطاب: «لَا يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ»، «لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ» فناظر إلى الظروف التي صدر فيها الكلام، فقد مضت على رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم سنين، واستتب الأمر للخلافة القائمة، وصار الحفاظ علىٰ كيان الدولة الإسلامية يقتضي الحفاظ علىٰ قوة الجيش وتماسكه. ولا شكّ في أنّ تعرّض الزعيم والقائد العام للجيش للقتل أثناء الحرب له تأثير سلبيّ علىٰ

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٣٤.

٢. قراءة راشدة: ٤١ـ٤٢.

٣. تحف العقول: ٣٧٤.

معنويات الجيش، وربّما يؤدّي إلىٰ انكساره، الأمر الذي ينعكس على كيان الدولة وسلامتها، باعتباره الدرع الواقي لها من كيد الأعداء، المتربّصين الشرّ بالإسلام وأهله.

فالإمامعليه السلام ينصح له بهذا الكلام من هذه الجهة. ويرشد إلىٰ ذلك قولهعليه السلام لعمر لمّا استشاره في الشخوص لقتال الفرس«إِنَّ ٱلْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونَ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ»[1]، وقولهعليه السلام في مناسبة أُخرى:«فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ٱلْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ ٱلَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ».[2]

وقد استشهد الكاتب (مرّة أُخرى) بكلام الإمامعليه السلام لعمر في قضية استشارته له في الشخوص لقتال الفرس[3]، وجوابنا عن ذلك عين الجواب الآنف الذكر.

الشبهة الثالثة عشرة

قال الكاتب: وقال مرّة أُخرى:«وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَٱسْتَقَامَ، حَتَّىٰ

١. نهج البلاغة: الخطبة:١٤٦.
٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٦٢.
٣. لاحظ: قراءة راشدة:٤٢.

ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ».[١]

ثم قال الكاتب: وهذا الوالي هو عمر بن الخطاب.[٢]

الجواب: إنّ الكاتب يحتجّ بفقرة مبهمة، غير أنّ انحيازه إلىٰ مذهبه جعلت الفقرة ظاهرة عنده في أنّ الضمائر ترجع إلى عمر بن الخطاب، رغم أنّ الشيخ محمد عبده قال: الوالي يُريد به النبيﷺ، ووليهم: أي تولّى أُمورهم وسياسة الشريعة فيهم، ثمّ قال: وقال قائل: يُريد عمر بن الخطاب.[٣]

والمعنىٰ ـ على ما ذكره ـ أنّ الإسلام تمكّن في الأرض وأظهره على الدين كلّه بفضل نبيّ الرحمةﷺ.[٤]

وعلى فرض أنّ عمر هو المراد بهذا الكلام، وصحّ أنّه جزء من الخطبة التي نقلها ابن أبي الحديد، فهو مدح نسبيّ قياساً إلى ثالث القوم مع أنّه لم يَخلُ من ذمّ إذ جاء بعده: «علىٰ عَسْفٍ وَعَجرفية كانا فيه». ويشهد علىٰ أنّه مدح نسبيّ أنّه يذكر في ثنايا الخطبة، قوله: ثمّ اختلفوا ثالثاً لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، غَلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخطوم، فلم يزل الأمرُ

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٤٦٧.

٢. قراءة راشدة:٤٣.

٣. نهج البلاغة:٢٦٤/٣، شرح محمد عبده.

٤. في ظلال نهج البلاغة:٤٨٠/٤.

بينه وبين الناس يَبعُد تارة ويقرب أُخرى حتى نَزَوا عليه فقتلوه، ثم جاءوا بي مَدَبّ الدَّبا، يريدون بيعتي.[١]

ثمّ إنّ هذا المدح النسبيّ(المشوب بالذمّ) مع افتراض أنّه لعمر، لا يُلغي القول بسخط الإمام، أشدّ السُّخط، علىٰ مَن استلب حقّه في الخلافة، وتظلّمهِ من ذلك منذ رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ حين استشهاده، وممّا يأتي في هذا المجال، قوله عليه السلام: «ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي».[٢]

الشبهة الرابعة عشرة

قال الكاتب: قال في كتاب أرسله إلى معاوية:«ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ لَهُ، وَأَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَٱسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَبَثَّ ٱلْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلَّا وَٱللهِ لَـ ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٣]».[٤]

---

١. شرح نهج البلاغة: ٢١٨/٢٠.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٢.

٣. الأحزاب: ١٨.

٤. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٨.

ثمّ عقّب عليه بقوله: فإذا كان عثمان فاسقاً أو مغتصباً للخلافة، فكيف جاز للإمام أن يذود عن فاسق أو مغتصب للخلافة؟ إلى آخر ما ذكره.[١]

الجواب: أوّلاً: إنّ الإمام هنا بصدد إبطال ما يتّهمه به معاوية من أنّه قد مالأ على قتل عثمان، وهي التهمة التي نجح هو وزمرته في تسويقها وإقناع أهل الشام بها، لتحريضهم على التمرّد على الإمام ومحاربته، وقد أفصح عليه السلام عن ذلك في كتاب له إلىٰ معاوية، قال فيه: «فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلاَ لِسَانِي، وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ».

ثانياً: إنّ الكاتب تجاهل عن عمد سائر كلمات الإمام عليه السلام التي تكشف عن موقفه من عثمان وما جرىٰ عليه، وتوضّح معنى النصر الذي أراده الإمام بقوله: «أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ»، وهو المعنى الذي يؤكّده سير الأحداث التاريخية.

قال عليه السلام من كلام له في معنى قتل عثمان: «لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي».[٢]

---

١. لاحظ: قراءة راشدة:٤٣ـ٤٤.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٣٠.

فالإمام عليه السلام لم يأمر بقتل عثمان، ولم يمنع عن قتله بأن يذبّ عنه بسيفه ويذود عنه بيده، وإنّما كان لا يرضىٰ بقتله ويحذّر منه، بالرغم من أنّه عليه السلام كان ينكر عليه استبداده وما أحدثه من بدع. ويدلّ علىٰ ذلك قوله فيه: «ٱسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ ٱلْأَثَرَةَ»[1]، وقوله: «وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً».[2]

ولو كانت نصرة عثمان نصرة للحقّ، لما قال الإمام:«غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ...»، لأنّ هذا يعني أنّ خاذليه كانوا خيراً من ناصريه، وهذا حقّ لأنّ الذين خذلوه هم المهاجرون والأنصار.

ثالثاً: إنّ الإمام عليه السلام كان قد اتّخذ، في تلك الظروف الصعبة التي استفحلت فيها الأزمة بين الثائرين والخليفة، اتّخذ موقفاً في منتهى الحكمة والشعور بالمسؤولية، فمن جهة كان ينصح الخليفة بتلبية مطالب الثائرين المحقّة كردّ المظالم، وعزل الولاة الفاسدين المستبدّين، ومن جهة أُخرى كان يعمل على تهدئة الثائرين الغاضبين، ودعوتهم إلى الصبر والاعتدال.

ولكنّ مساعي الإمام تلك مع الخليفة لحلّ الأزمة وإصلاح الأوضاع، لم تنجح، فما إن يأخذ عليه الإمام العهود بتلبية تلك

---

١. نفس المصدر.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٢٨.

المطالب ويستعدّ الثائرون للعودة إلىٰ بلدانهم، حتى يتراجع عنها أو ينقضها مروان بن الحكم (الذي صار عثمان سيّقة له)[١] بسوء تصرّفه.[٢]

وكان الإمام عليه السلام يستهدف من كلّ تلك المساعي التي عبّر عنها بقوله: «أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ» المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، وتجنيب الأُمّة النزاع والصراع المسلّح وسفك الدماء، ويتّضح هذا من قوله لعثمان: «وَإِنِّي أَنْشُدُكَ ٱللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، وَ يَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ ٱلْفِتَنَ فِيهَا...».[٣]

رابعاً: دلّت غير واحدة من الروايات علىٰ أنّ عثمان استنصر معاوية وهو في الحصار، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ معاوية أولىٰ بالتهمة، كما يقول: «أَمْ مَنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَبَثَّ ٱلْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ»: أي لم ينصره حتى أدركته المنيّة.

روي أنّ معاوية بعد أن تمّ له الأمر قال للصحابي أبي الطفيل عامر بن واثلة: ألست من قتلة عثمان؟ قال أبو الطفيل: لا، ولكنّي لم أنصره. قال معاوية: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون

---

١. قال الإمام مخاطباً عثمان: «فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ وَتَقَضِّي ٱلْعُمُرِ».نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤.

٢. لاحظ: تاريخ الطبري:٣/٣٩٨.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤.

والأنصار. قال معاوية: كان حقّاً واجباً عليهم أن ينصروه. قال له أبو الطفيل: وما منعك أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أما طلبي بدمه فنصرة له. فضحك أبو الطفيل وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زادا[١]

قال الشيخ الأميني بعد نقل كلام أبي الطفيل: أترى هذا الشيخ الكبير الصالح كيف يعترف بخذلانه عثمان؟ ويحكي مصافقته على ذلك عن المهاجرين والأنصار الصحابة العدول، غير متندّم على ما فرّط هنالك، ولو كان يتحرّج هو ومن نقل عنهم موافقتهم له لردعتهم الصحبة والعدالة عمّا ارتكبوه من القتل والخذلان، ولو كان لحقه وإيّاهم شيء من الندم لباح به وباحوا، لكنّهم اعتقدوا أمراً فمضوا على ضوئه، وإنّهم كانوا على بصيرة من أمرهم، وما اعتراهم الندم إلى آخر نفس لفظوه.[٢]

الشبهة الخامسة عشرة

قال الكاتب: وقال مرّة لعثمان عندما ثار الناس عليه:«إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ ٱسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَٱللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ.

---

١. الإمامة والسياسة: ١٦٥/١؛ مروج الذهب: ٢٥/٣؛ مختصر تاريخ دمشق: ٢٩٣/١١.

٢. الغدير: ٢٠٢/٩.

مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا...إلى آخر كلامه».(١)

ثمّ عقب ذلك بقوله: ولنا أن نقف مع هذا الخطاب السياسي العظيم للإمام، الذي يخاطب به عثمان، انظر إلى هذه الكلمات الصادقة وتدبّرها، يقول:«مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ» أي أنّ عثمان وعليّاً يشتركان في العلم والمعرفة، وليس أحدهما بأعلم من الآخر، فعليّ يخبر أنّه لا يعرف ولا يعلم شيئاً من أُمور الدين لم يعرفها عثمان.(٢)

الجواب: إنّ الكاتب لم يذكر موضع كلام الإمام، قال ابن أبي الحديد: لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكوا إليه ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم، فدخل عليه السلام على عثمان، وقال: «إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ آسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَآللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ...».(٣)

فإنّ كلام الإمام عليه السلام يرجع إلى الأحداث خاصّة، يقول ابن أبي الحديد: إنّه لا يعلم ماذا يقول له لأنّه لا يعرف أمراً يجهله من هذه

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤؛ قراءة راشدة: ٤٤ـ٤٥.

٢. قراءة راشدة: ٤٥.

٣. شرح نهج البلاغة: ٩/٢٦١.

الأحداث خاصّة، وهذا حقّ لأنّ علياًعليه السلام لم يكن يعلم منها ما يجهله عثمان، بل كان أحداث الصبيان، فضلاً عن العقلاء المميّزين، يعلمون وجهَي الصواب والخطأ فيها.(١)

ثمّ إنّ قول الإمامعليه السلام: «وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ابْنُ ٱلْخَطَّابِ بِأَوْلىٰ بِعَمَلِ الحَقِّ مِنْكَ...»فالإمام بصدد الملاطفة والقول الليّن ولذلك ذكر سيرة الشيخين ومن الواضح أنّ سيرتهما تختلف عن سيرة عثمان الذي أسّس حكومة (عائلية) أموية بحتة، وطرد أعاظم الصحابة، وأين ذلك من عمل الشيخين... وأمّا أنّ الشيخين كانا في منتهى الصواب ـ كما يتصوّر الكاتب ـ فلا يدلّ عليه شيء من عبارة الإمام.

وحصيلة الكلام: إنّ الإمام بصدد إسداء النصيحة لغاية نجاة الخليفة من الهلاك، لذا فهو يذكر أُموراً عسى أن يقنعه ليغيّر سيرته ويلبّي طلبات الثوار المحيطين به، ولذلك يقول في آخر كلامه: «وَإِنِّي أَنْشُدُكَ ٱللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ».

---

١. شرح نهج البلاغة:٢٦٢/٩ـ٢٦٣.

الشبهة السادسة عشرة

قال الكاتب: قال علي عليه السلام عن السيدة عائشة، في أصحاب الجمل: «فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا تُجَرُّ ٱلْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا»[١]؟

ثم قال الكاتب: فسمّاها عليٌّ حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله... ونقول: إذا سمّاها الإمام حرمة، فهل يجوز استطالة اللسان فيها والتعرّض لها، ونبزها والتشفّي منها.[٢]

ثم قال: وذكرها مرّة فقال: «فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ ٱللهِ، عَزَّوَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ. وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ ٱلنِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا ٱلْأُولَىٰ، وَٱلْحِسَابُ عَلَىٰ ٱللهِ تَعَالَىٰ».[٣]

ثمّ قال: ما معنى حرمتها الأُولى؟ تدبّر هذه الكلمة، لا أظنّ الإمام عنى إلّا أنّها زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّها أُمّ المؤمنين.[٤]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٢.

٢. قراءة راشدة: ٤٦ـ٤٧.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦.

٤. قراءة راشدة: ٤٧.

الجواب: إنّ الكاتب بعد ما حاول تكريم الخلفاء الثلاثة فوق ما يستحقّون وذلك بإخضاع كلام الإمام أمير المؤمنين على ما يرتئيه، حاول في هذا المقام تكريم السيدة عائشة حسب ما يُريد.

أقول: لا شكّ أنّ زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بانتسابهن إليه صلى الله عليه وآله وسلم، محترمات، لا يشكّ في ذلك أحد من المسلمين، إلّا أنّ تكريمهنّ لأجل الانتساب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنع البحث عن نقد أفعالهنّ ومواقفهنّ من المسائل الاجتماعية بل حتى الفردية، وهذا هو كتاب الله المجيد يصف بعض أزواج النبيّ بقوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[١].

روى مسلم بإسناده إلى ابن عباس أنّه سأل عمر بن الخطاب: مَن المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللّتان قال الله عزّ وجلّ لهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ قال عمر: حفصة وعائشة.[٢]

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أنّ عملهما هذا كان ناتجاً عن ميل قلوبهما إلى الإثم، وعدولهما عن الحق إلى الباطل، فقد خرجتا عن أدب المعاشرة، بل عن أدب الإسلام، حيث إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوصاهما

---

١. التحريم:٤.

٢. صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، برقم ٣٥٨٦؛ وانظر: صحيح البخاري:٣/٣١٠، كتاب التفسير.

بالكتمان، وبما أنّهما خالفتا وصيّته، فأمامهما طريقان، وهما مخيرتان بينهما:

١. التوبة والندامة، كما يقول سبحانه:﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

٢. الاستمرار في هذا العمل كما يقول سبحانه:﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ...﴾.

فلا عتب على الباحث إذا درس حياة السيد عائشة ووجد فيها ثغرة أو ثغرات لا تنسجم مع مقتضى كونها زوج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك كتب أمير المؤمنين عليه السلام ـ لمّا قارب البصرة ـ إلى طلحة والزبير وعائشة، قال: «وأنت يا عائشة فإنّك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثمّ تزعمين أنّك تريدين الإصلاح بين المسلمين، فخبّريني ما للنساء وقود الجيوش والبروز للرجال، والوقوع بين أهل القبلة وسفك الدماء المحرّمة؟ ثمّ إنّك طلبت على زعمك دم عثمان، وما أنت وذلك؟

عثمان رجل من بني أُميّة وأنت من تيم، ثمّ بالأمس تقولين في ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اقتلوا نعثلاً قتله الله فقد كفر، ثمّ تطلبين اليوم بدمه؟ فاتقي الله وارجعي إلى بيتك، واسبلي عليك سترك، والسلام»[١].

---

١. تذكرة الخواص:٦٩.

قال ابن أبي الحديد: قال كلّ من صنّف في السير والأخبار: إنّ عائشة كانت من أشدّ الناس على عثمان حتى أنّها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها:هذا ثوب رسول الله ﷺ لم يبل وعثمان قد أبلى سنّته. قالوا: أوّل مَن سمّى عثمان نعثلاً عائشة، وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً.(١)

وعلى كلّ تقدير، فمَن قرأ تاريخ حرب الجمل يقف على أنّ عائشة كانت في الخط الأوّل من هذه الوقعة المؤلمة لمحاربة الإمام، المفترضة طاعته! إمّا بتنصيص من الرسول ﷺ أو ببيعة وانتخاب المهاجرين والأنصار، وقد كان الجمل الذي يحمل عائشة في وسط الميدان، ومادام الجمل قائماً كانت نار الحرب بين الفريقين مستعرة، فلم يجد الإمام عليه السلام بدّاً من الأمر بعقر الجمل حتى يسقط على الأرض وتُكسر بعقره شوكة الناكثين...

قال الإمام علي عليه السلام:«ويلكم اعقروا الجمل فإنّه شيطان، اعقروه وإلّا فنيت العرب. لا يزال السيف قائماً وراكعاً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض».(٢)

ومع ذلك كلّه فالإمام عليه السلام يطلق كلمته الأخيرة، حيث قال: ولها

---

١. شرح نهج البلاغة:٢١٥/٦.

٢. شرح نهج البلاغة:٢٦٧/١.

حرمتها الأُولى، وكلامه حجّة على الكلّ، غير أنّك عرفت أنّ حفظ الحرمة لا يمنع من دراسة سيرة حياة أي إنسان محترم.

وننبّه إلىٰ أنّ الكاتب يذكر هنا هذه الخطبة لتأييد دعواه بأنّ الإمام يثني على عائشة، ولكنّه يُعرض عن فقرات فيها تنقض عليه دعواه بأنّ الإمام يثني على الصحابة(دون تخصيص)، وأعني قوله عليه السلام فيها:«فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا تُجَرُّ ٱلْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ»، فهل عملهم هذا من الثناء أو من الذمّ يا فضيلة الكاتب؟!

المبحث الرابع

أهل الشام[1]

خصّ الكاتب هذا المبحث بأهل الشام، وقد بذل جهده في إثبات أنّهم لم يكفروا بمحاربتهم لإمام زمانهم علي عليه السلام، ثم استدلّ بفقرات من كلمات الإمام عليه السلام على ما يُريد.

أقول: إنّ الكاتب لم يفرّق بين الباغي والكافر، وأصحاب الجمل وأهل الشام الذين خرجوا من ديارهم وحاربوا الإمام كلّهم بغاة، وللكفّار أحكام، وللبغاة أحكام أُخرى، ولذلك قال أحمد بن حنبل بأنّه لولا أنّ علياً حارب هؤلاء لم نقف على أحكام البغاة.[2]

ثمّ إنّ الحكم بتكفير أهل بلد واحد أو بكونهم بغاة، جميعاً وبلا استثناء، بحاجة إلى دليل قاطع على الاستيعاب، وأنّى للفقيه ذلك

---

١. لاحظ: قراءة راشدة:٤٨ـ ٥١.

٢. لاحظ: تذكرة الخواص لابن الجوزي:٣٨ـ ٣٩.

الحكم، وإنّما الحكم على الغالب أو الأغلب...

ومع ذلك يمكن أن يوجد فيهم مَن لم يحارب عليّاً ولم يخرج من بيته، والله هو العالم بما في ضمائر وقلوب عباده.

ولذلك لا ندور حول هذا الموضوع كثيراً، وإنّما نورد بعض ما قاله الإمام في معاوية وفئته الباغية، ومنه تتّضح رؤيته لهم، وموقفه منهم.

قال عليه السلام من كتاب له إلىٰ معاوية، جواباً عن كتاب منه إليه: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ ٱلْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْحَقُّ فَإِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْبَاطِلُ فَإِلَىٰ ٱلنَّارِ». ثمّ قال: «وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَىٰ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ عَلَىٰ ٱلْآخِرَةِ».(١)

وقال عليه السلام من كتاب له إلى معاوية: «وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ...».(٢)

والعجب أنّ الكاتب لم يورد مثل هذه الأقوال، ولم يقف عند كلمات الإمام الواضحة، الدالّة على نكوص هؤلاء البغاة على الأعقاب وتماديهم في الضلال، بل أخذ يستدلّ بفقرات من كلام

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ١٧.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣٢.

الإمام عليه السلام على نزاهة أهل الشام، ناسياً ما نقله عن الإمام عليه السلام سابقاً في حقّهم!! حيث قال في شأن الحكمين وذمّ أهل الشام: «جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّىٰ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ. لَيْسُوا مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ».[١]

***

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٤٢.

المبحث الخامس

أصحاب عليّ عليه السلام

قال الكاتب: بعد أن استعرضنا مواقف علي عليه السلام من الصحابة وأهل الشام، ورأينا كيف مدح الخلفاء قبله، سنتعرّض إلى كلامه حول أصحابه، وكيف كان يذمّهم هو بنفسه، وكثيرون لا يرضون بذمّ أصحاب علي عليه السلام بل يمدحونهم ويرفعونهم، ولكنّهم في المقابل يرمون أصحاب خير الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتلك هي قسمة ضيزى![1]

أقول: لا شكّ أنّ الكوفة كانت معقل الشيعة، وقد كان للإمام فيها صحابة وأنصار مخلصون ثبتوا على صلاحهم وتفانيهم في حب الإمام عليه السلام حتى ذاقوا كأس المنون ونالوا مرتبة الشهادة بعد شهادة الإمام عليه السلام أمثال: حُجر بن عَديّ وأصحابه الذين قتلهم ابن أبي سفيان

١. قراءة راشدة: ٥٢.

في مرج عذراء من نواحي الشام، وميثم التمّار الذي صُلب في الكوفة على جذع النخلة وكان ينشر فضائل الإمام علي عليه السلام وهو مصلوب، وغير هؤلاء من صالحي أنصار الإمام عليه السلام، كمالك الأشتر وصعصعة بن صوحان العبدي وغيرهم. ومع ذلك كان بين أهل الكوفة أُناس يذمّهم الإمام عليه السلام لتثبيطهم الناس عن الحرب، وليس هذا أمراً مكتوماً، فالبحث فيه إيضاح للواضحات. نعم للكاتب وراء مدح أهل الشام وذمّ أهل الكوفة غرض خاص لا يفوت القارئ الكريم عرفانه.

***

المبحث السادس

الكتاب والسنّة

قال الكاتب: ولنا أن نعرض كلام الإمام ونتفحّصه حول الكتاب والسنّة، لنرى كيف كان الإمام يتعامل مع هذين المصدرين.

ثمّ ذكر شيئاً من خطب الإمام حول الكتاب العزيز وقال: «وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ».[1]

ثم قال: وصف يدل على إيمانه التام به، وأنّه لا قرآن غيره، وأنّه هو الدائم الذي لا يبدَّل ولا يحول.[2]

ثمّ نقل فقرة أُخرى حول السنّة الشريفة، قال عليه السلام: «أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا

1. نهج البلاغة: الخطبة ١٨.
2. قراءة راشدة: ٦٣.

هٰذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ ٱلْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا».(١)

أقول: إنّ الكاتب بصدد التصيّد في الماء العكر، واتّهام الشيعة بالقول بتحريف القرآن وعدم العمل بسنّة النبي الأكرم ﷺ فنقل كلام الإمام علي تعرّضاً لعمل الشيعة ـ حسب زعمه ـ.

وأنا باسم كلّ شيعي إمامي أشهد بأنّ الشيعة جميعاً يعملون بالكتاب والسنّة وهما من الأدلّة الأربعة عند فقهائهم، فالكتاب أوّلاً والسنّة ثانياً، والإجماع ثالثاً، والعقل رابعاً، وأنّ العقيدة المجمع عليها عبر القرون هو أنّ الكتاب العزيز لم يحرَّف، ولو وجد بين الشيعة مَن يقول بالتحريف فهو قول شاذ لا يُعتدّ به، كما أنّ القول بالتحريف موجود عند أبناء السنّة كذلك.

وأمّا ما يُروىٰ عن رسول الله ﷺ فهو الدليل الثاني، حتى أنّ حجّية أقوال الأئمّة: لأجل أنّها تحكي عن السنّة النبوية.

ولا أدري ما الذي حمل الكاتب على فتح هذا الباب.

أقول: وشهيدي الله أنّ كلّ فرد من الطائفتين (السنّة والشيعة) يحاول أن يتّهم الطائفة الأُخرى بالتحريف فهو لا يخدم ـ من حيث يعلم أو لا يعلم ـ إلّا الأعداء من التبشيريّين، الذين يستميتون لإثبات تحريف كتاب الله العزيز حتى يدفعوا بذلك العار اللاحق بهم بسبب

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٤٩.

تحريف الكتاب المقدّس، ويعلنوها صراحة بأنّ التحريف لا يختصّ بكتابنا، بل لحق حتى كتاب الله العزيز وأنّه مُنيَ بما مُنيَ به الكتاب المقدّس.

وفي هذا المقام أُخاطب الكاتب بأنّ محاولتك لاتّهام الشيعة بتحريف كتاب الله العزيز مع كونها تهمة تؤاخذ بها أنت، هي خدمة للأعداء. وإلى الله المشتكى.

المبحث السابع

الدعاء

أمرنا الله سبحانه بالدعاء قائلاً: ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء سلاح المؤمن».[2]

والإنسان بما أنّه موجود ممكن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، بل وجوده وكل ما له به صلة من نعم الله سبحانه وفيوضاته.

ثمّ إنّ الإنسان قد يتوسّل ويدعو الله تبارك وتعالى بلا توسيط دعاء نبيّ أو دعاء مؤمن أو توسيط كرامة إنسان، فباب الله تعالى مفتوح بوجه الإنسان.

وأُخرى قد يدعو الله تبارك وتعالى ويوسّط بين الدعاء والمدعو دعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو دعاء إنسان مؤمن أو غير ذلك من الوسائط،

---

١. غافر: ٦٠.

٢. كنز العمال: ٦٢/٢، برقم ٣١١٧.

فالجميع دعاء مشروع دلّ عليه الكتاب والسنّة. ومن قرأ تاريخ الأُمم والشرائع السابقة والآيات الكريمة والأحاديث النبوية لا يشكّ في أنّ الدعاء ـ على كلا الوجهين ـ أمر مشروع.

غير أنّ الكاتب في هذا المبحث رفع النقاب عمّا يضمر، وذلك لأنّه كان في البحوث السابقة بصدد الردّ على الشيعة ولكنّه في هذا المبحث وما يأتي بعده صار بصدد الرد على أغلب المسلمين والجمع الكثير من أهل السنّة، وبذلك صار من دعاة التفرقة مكان أن يكون داعياً إلى الوحدة.

إنّ من بدع الوهابية التي أرسىٰ قواعدها وزرع بذرها أحمد بن تيمية وسقاها المتطفّل على مائدته محمد بن عبد الوهاب، هو عدم جواز التوسّل بالأولياء عند الدعاء، وهذا هو الذي يطرحه الكاتب في هذا المبحث، حيث إنّه عرّف الدعاء بقوله: الدعاء عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، ولا يجوز التوسّل في الدعاء بغير المشروع.[١]

أقول: إنّ ما ذكره من الكبرى(لا يجوز التوسّل في الدعاء بغير المشروع) أمر مسلّم، إنّما الكلام في تمييز المشروع عن غيره.

ثمّ يبيّن ـ الكاتب ـ أنّ توسيط الأنبياء والأولياء في الدعاء أمر غير مشروع، فدعاء الله سبحانه بالنحو التالي:«اللّهمّ استجب دعائي بحقّ محمّد وآل محمد» دعاء غير مشروع، واستدلّ على ذلك من

١. قراءة راشدة: ٧١.

كلمات الإمامعليه السلام بالفقرات التالية:

١. قال في وصيته لابنه الحسنعليه السلام: «وَٱعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ».[1]

وأمّا وجه الدلالة، فيقول: انظر كلامه: «وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ» ما معنى هذا الكلام؟ أليس معناه طرح الواسطة بينك وبين الله في المسألة؟[2]

والجواب: إنّ الإمامعليه السلام بصدد بيان أنّه لا مانع ولا حجاب بين الداعي والمدعوّ، وأنّه سبحانه أقرب إلى الداعي من حبل الوريد، وأنّه ما من ثلاثة إلّا هو رابعهم، وما من خمسة إلّا هو سادسهم، وعلىٰ هذا فللداعي أن يدعو الله تعالى دون أن يتصوّر أنّ بينه وبين ربّه أيّ حجاب أو مانع.

وأمّا قوله: «وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ» فهو بصدد بيان أنّ للدعاء طريقين:

أحدهما: أن يدعو الله تعالى بلا شفاعة أحد.

وثانيهما: أن يدعو الله تعالى مع الشفاعة.

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣.

٢. قراءة راشدة: ٧٣.

فالله سبحانه لم يحصر الدعاء بالنحو الثاني فقط، بل بابه سبحانه مفتوح بوجه الداعين بكلا النحوين.

٢. خطبة الإمام في التوسّل، قال: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ ٱلْمُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ٱلْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ ٱلْإِسْلَامِ؛ وَكَلِمَةُ ٱلْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا ٱلْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا ٱلْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ ٱلْعِقَابِ؛ وَحَجُّ ٱلْبَيْتِ وَٱعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ ٱلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ. وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي ٱلْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي ٱلْأَجَلِ؛ وَصَدَقَةُ ٱلسِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ ٱلْخَطِيئَةَ؛ وَصَدَقَةُ ٱلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ ٱلسُّوءِ؛ وَصَنَائِعُ ٱلْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ ٱلْهَوَانِ».[١]

والاستدلال بهذه الفقرة كالاستدلال بالأمرين المتقدّمين.[٢]

والجواب: إنّ الإمام في هذا الكلام بصدد بيان أفضل الوسائل لكسب مرضاة الله وثوابه، وأنّ أفضل الوسائل هو أعمال الإنسان عقيدة وعملاً، فلذلك ذكر الأمور التالية:

١. الإيمان بالله سبحانه.

٢. الإيمان برسوله.

٣. الجهاد في سبيله.

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.

٢. قراءة راشدة: ٧٤.

٤. كلمة الإخلاص فإنّها الفطرة.

٥. إقام الصلاة فإنّها الملّة.

٦. إيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة.

٧. صوم شهر رمضان فإنّه جنة من العقاب.

٨. حجّ البيت.

٩. صلة الرحم فإنّها مثراة في المال.

١٠. صدقة السّرّ فإنّها تكفّر الخطيئة.

١١. صنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان.

ثمّ أفاض الإمام الكلام في ذكر الله وقراءة القرآن. ومَن تدبّر في الخطبة يقف على أنّ الإمام ردّ ما ربما يُتوهَّم من أنّ طهارة القلوب تكفي في التقرّب إلى الله تعالى وكسب رضاه، غير أنّ الإمام يركّز على العكس وأنّ الوسيلة لكسب رضا الله ومرضاته هي الأعمال.

بالله عليك هل هذا الكلام في هذا الموقف بصدد الردّ على من توسّل بدعاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو بدعاء أخيه المؤمن، أو بذات الأنبياء، والأولياء؟ فإنّ استنتاج الثاني من الخطبة أمر غريب دالّ على ضعف الكاتب بموارد الكلام، ومعاني الفقرات.

٣. وفي كلام له عليه السلام يقول عن ربّنا سبحانه: «فَاسْتَفْتِحُوهُ، وَٱسْتَنْجِحُوهُ، وَٱطْلُبُوا إِلَيْهِ وَٱسْتَمْنِحُوهُ (واستميحوه)، فَمَا قَطَعَكُمْ

عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».[١]

ثم قال الكاتب بعد هذه الفقرة: هل نحتاج إلى تعليق.[٢]

والجواب: إنّ الكاتب لم يتأمّل في كلام الإمامعليه السلام ونحن نذكر ما يوضح مرادهعليه السلام.

قوله: «فَاسْتَفْتِحُوهُ»: أي اطلبوا منه الفتح عليكم والنصر لكم.

«وَٱسْتَنْجِحُوهُ»: أي اطلبوا منه النجاح والظفر.

«وَٱطْلُبُوا إِلَيْهِ»: أي اسألوه، يقال: طلبت إلى زيد كذا وفي كذا.

«وَٱسْتَمْنِحُوهُ»، بكسر النون: اطلبوا منه المنحة، وهي العطية. ويروى «واستميحوه» بالياء، استمحت الرجل: طلبت عطاءه، ومحتُ بالرجل: أعطيته.

ثمّ ذكرعليه السلام أنّه لا حجاب يمنع عنه، ولا دونه باب يُغلق، وأنّه بكلّ مكان موجود، وفي كلّ حين وأوان، والمراد بوجوده في كلّ مكان إحاطته بالعوالم كلّها، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.[٤]

هذا هو مقصد الإمام ومرامه، فهو يركّز على حضوره سبحانه

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٥.

٢. قراءة راشدة: ٧٤ـ٧٥.

٣. المجادلة: ٧.

٤. الحديد: ٤.

في كلّ مكان ومقام وأنّه لا حاجب بينه وبين عباده.

وأمّا أنّه إذا دعا العبد المذنب ربه وتوسّل بدعاء النبيّ أو بدعاء أخيه أو أحد المقرَّبين، فليس الإمام بصدد إثبات جوازه أو الحكم ببطلانه.

والحق أنّ الكاتب اتّخذ موقفاً مسبقاً، خاصّاً به، حاول أن يجد على ما يتبنّاه دليلاً حسب زعمه.

إلى هنا تمّت مناقشة ما استدلّ به الكاتب على ما يرتئيه، وإليك بحثاً موجزاً حول التوسّل على ضوء الكتاب والسنّة.

الأدلّة الشرعية على التوسّل

إنّ للتوسّل وجوهاً مختلفة دلّ على جوازها الكتاب العزيز والسنّة النبويّة، وإليك عدداً منها:

الأوّل: التوسّل بدعاء النبيّ ﷺ في حال حياته

دلّ الكتاب العزيز على توسيط دعاء النبيّ ﷺ لطلب المغفرة، قال سبحانه: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾**[1].

وفي آية أُخرى يحكي سبحانه عن طلب أبناء يعقوب من أبيهم

---

١. النساء:٦٤.

أن يستغفر الله لهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[١]

فلو كان قول الإمام عليه السلام: «وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ» دليلاً على بطلان التوسّل ـ كما زعمه الكاتب ـ فكيف يجمع بين كلام الإمام المعصوم والقرآن المجيد؟ كلا إنّ كلام الإمام لا يشذّ عن القرآن قدر رأس إبرة، وإنّما الخطأ والشذوذ في استنباط الكاتب، وهو استنباط نابع عن موقف سلبيّ مسبق، قبل الرجوع إلى كلام الإمام عليه السلام.

الثاني: التوسّل بدعاء النبي بعد رحيله

إنّ سيرة المسلمين قاطبة منذ عصر الصحابة والتابعين إلى عصرنا الحاضر قائمة على التوسّل بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد رحيله ولحوقه بالرفيق الأعلى، وهناك شواهد كثيرة لا يسع المقامُ نقلَها، ولكن نذكر شيئاً قليلاً منها:

١. قال محيي الدين النووي (٦٣١ـ٦٧٦هـ): ثمّ يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر... ثمّ يسلّم ولا يرفع صوته، بل يقصده فيقول: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خيرة خلق الله... ثمّ يقول: جزاك الله يا رسول الله عنّا

---

١. يوسف:٩٧ـ٩٨.

أفضل ما جزى نبيّاً ورسولاً عن أُمّته، وصلّى عليك كلّما ذكرك ذاكر وغفل عن ذكرك غافل...إلى أن يقول: اللّهم آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، وآته نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون».

ولا يتصوّر أحد أنّ القول بصحّة طلب الدعاء من النبي ﷺ يختص بالنووي وبعض أساتذته، بل المحدّثون والفقهاء ـ إلّا من شذّ من الوهابية ـ متّفقون على ذلك، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا: «الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية».[١]

وأمّا القول بأنّ النبي ﷺ ميّت ولا يسمع الدعاء، فهو على خلاف ما أجمع عليه المسلمون من الحياة البرزخية للأنبياء والصلحاء والنبي الأكرم ﷺ بشهادة أنّ المسلمين يسلّمون عليه كلّ يوم وليلة ويقولون السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته. حتى أنّ الجدد من الوهابيّين يجوّزون زيارة النبي ﷺ والتسليم عليه. ولنا رسالة مستقلة حول «الحياة البرزخية».

الثالث: التوسّل بذات الأنبياء والصالحين

هذا هو بيت القصيد في كلام الكاتب، والفرق بين هذا التوسّل وما قبله هو أنّ الإنسان يتوسّل إلى الله بدعائهم ويطلب منهم أن

---

١. الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية:٢٩٨ـ٣٠٠.

يدعون له بقضاء حاجته، وفي الحقيقة يجعل دعاءهم وسيلة للتقرّب إلى الله تعالى.

وأمّا المقام فيقوم على أساس التوسّل بذوات الأنبياء والصالحين وجعلهم وسيلة لاستجابة الدعاء، والاعتماد على ما لهم من المقام والمنزلة الرفيعة عند الله سبحانه.

وبعبارة أُخرى: إنّ المتوسّل يجعل تلك الذوات الطاهرة والنفوس الزكية والشخصيات المثالية واسطة بينه وبين ربّه ويتقرّب إلى الله بحرمتهم ومقامهم المعنوي، لأنّه يعلم أنّ لهم منزلة ومقاماً عند ربّهم، ثمّ يدعو الله سبحانه لعلّه يستجيب دعاءه بحرمة الذوات المقدّسة. ولهذا التوسّل صور، منها:

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بخاصّة أوليائك.

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بمقام ومنزلة أوليائك.

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بنبيّك الأكرم وأهل بيته الطاهرين.

ففي هذه التوسّلات يجعل المتوسّل الواسطة للتقرّب بينه وبين ربّه نفس النبي ﷺ والأولياء والصالحين، وهذا النوع من التوسّل بالإضافة إلى رواجه وشيوعه في الأوساط العلمية، تدلّ عليه رواية صحيحة تحت عنوان «حديث الضرير» رواها أتباع مدرسة الصحابة وأذعنوا بصحّتها.

توسّل الضرير بنبي الرحمة

رُوي عن عثمان بن حُنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبيّ فقال: أُدع الله أن يعافيني، فقالﷺ: «إن شئت دعوتُ وإن شئت صبرتَ وهو خير».

قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ محمّد نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يا مُحَمَّدٍ إنّي أتوّجهُ بِكَ إلى رَبّي في حاجَتي لتُقضى، اللّهمّ شفِّعه فيّ».

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرّ.[١]

إنّ الاستدلال بالرواية مبنيّ على صحّتها سنداً وتماميتها دلالة.

أمّا الأوّل: فلا يناقش في صحّتها إلّا الجاهل بعلم الرجال، حتّى أنّ ابن تيمية[٢] اعترف بصحّة الحديث حيث قال: قد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبي أنّه علّم رجلاً أن يدعو فيقول: «اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبيّك» .

وروى النسائي نحو هذا الدعاء.

---

١ . سنن الترمذي: ٢٢٩/٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٦٥٩؛ سنن ابن ماجة: ٤٤١/١، برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد: ١٣٨/٤، إلى غير ذلك من المصادر.

٢ . مجموعة الرسائل والمسائل: ١٣/١.

وقال الترمذي: هذا حديث حقّ حسن صحيح، وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح.

وقال الرفاعي: لا شكّ أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور.[١]

وبعد ذلك فلا يحقُّ لأحد التشكيك في صحّة سند الحديث، إنّما الكلام في دلالته، وإليك البيان:

إنّ الحديث يدلّ بوضوح على أنّ الأعمى توسّل بذات النبيّ بتعليم منه ﷺ، والأعمى وإن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر، إلّا أنّ النبيّ علّمه دعاءً تضمّن التوسّل بذات النبي، وهذا هو المهم في تبيين معنى الحديث.

وبعبارة ثانية: إنّ الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأوّل: أنّ الرجل طلب من النبي ﷺ الدعاء ولم يظهر منه التوسّل بذات النبيّ.

الثاني: أنّ الدعاء الذي علّمه النبي، تضمّن التوسّل بذات النبي بالصراحة التامّة، فيكون ذلك دليلاً على جواز التوسّل بالذات.

وإليك الجمل والعبارات التي هي صريحة في المقصود:

١. اَللّـٰهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ

إنّ كلمة «نبيّك» متعلّقة بفعلين، هما: «أسألك» و «أتوجّه إليك»،

---

١. التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ١٥٨.

والمراد من النبيّ ﷺ نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاؤه.

وتقدير الوهابي كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيّك» حتّى يكون المراد هو «أسألك بدعاء نبيّك، أو أتوجّه إليك بدعاء نبيّك» تحكّم وتقدير بلا دليل، وتأويل بدون مبرّر، ولو أنّ أحداً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدريّة.

٢. مُحمّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ

لكي يتّضح أنّ المقصود هو سؤال الله بواسطة النبيّ ﷺ وشخصيته، فقد جاءت بعد كلمة «نبيّك» جملة «محمدٍ نبيّ الرّحمة» لكي يتّضح نوع التوسّل والمتوسّل به بأكثر ما يمكن.

٣. يا محمّد إنّي أتوجّهُ بِكَ إلىٰ رَبّي

إنّ جملة «يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي» تدلّ على أنّ الرجل الضرير ـ حسب تعليم الرسول ـ اتّخذ النبيّ نفسه وسيلة في دعائه، أي أنّه توسّل بذات النبيّ لا بدعائه ﷺ.

إجابة عن سؤال

فإن قيل: إنّ الحديث يدلّ على جواز التوسّل بالنبيّ الأعظم حال حياته الدنيوية، وأمّا التوسّل به بعد رحيله، فلا يستفاد جوازه منه .

قيل: إنّ المتوسّل به، هو قربه ومكانته عند الله وقداسته وطهارته

الروحية وهي لا تفارقه بالموت، وهذه الكرامة التي ربما تمطر السماء بفضلها، قائمة بروحه من غير فرق بين الحياة الدنيوية أو الأُخروية.

على أنّ الصحابيّ الجليل عثمان بن حنيف فهم من الحديث السابق أنّ التوسّل بذات النبيّ وشخصه يعمّ كلتا الحياتين، ولذلك أرشد بعض أصحاب الحاجة إلى الدعاء نفسه الذي علّمه الرسول الأكرم للضرير.

روى الحافظ سلمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني(المتوفّى ٣٦٠هـ) عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف، عن عثمان بن حنيف: أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إئت الميضأة فتوضّأ، ثمّ ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثمّ قل: «اللّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ محمّد نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يا مُحَمَّدٍ إنّي أتوّجهُ بِكَ إلى رَبّي فتقضي لي حاجَتي» فتذكر حاجتك ورح إليّ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثمّ أتى باب عثمان بن عفان فجاء البوّاب حتّى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له ثمّ قال له: ما ذكرت حاجتك حتّى كانت الساعة، وقال: ما كانت لك من

حاجة فاذكرها.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتّى كلّمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبيّ ﷺ: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ عليّ، فقال النبي ﷺ: إئت الميضأة فتوضّأ ثمّ صلّ ركعتين، ثمّ ادع بهذه الدعوات، قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قطّ.(١)

إنّ دلالة الحديث على جواز التوسّل بذوات الصالحين، وأخصّ منهم الأنبياء أمر لا غبار عليه.

نعم، إنّ بعض مَن لا يروقه هذا النوع من التوسّل كابن تيمية والسائرين على منهجه حينما يواجهون تلك الروايات الصحيحة والصريحة، يحاولون الخدش في دلالتها ودلالة غيرها من الروايات الصريحة في التوسّل بذات الرسول ﷺ باعتماد تأويلات باردة، حيث يذهبون إلى وجود التقدير في الحديث، ويقولون: إنّ هناك كلمة مقدّرة وهي[الدعاء]، فيكون المقصود ـ حسب رأيهم ـ من

---

١ . المعجم الكبير للطبراني:٩/١٦ـ١٧، باب ما أُسند إلى عثمان بن حنيف، برقم ٨٣١٠؛ والمعجم الصغير له أيضاً: ١/١٨٣ـ١٨٤.

جملة «أَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ» يعني «أتوجّه إليك بدعاء نبيّك».

ولا ريب أنّ هذه التأويلات نابعة من الأحكام المسبقة والاعتقادات الراسخة في أذهانهم، لأنّ هذا التقدير لا ينسجم مع جميع الفقرات والجمل الواردة في الحديث.

ثمّ لو كان الضرير قد توسّل حقيقة بدعاء النبيّ ﷺ، فلماذا يعلّمه الرسول الأكرم طريقة التوسّل بأن يقول: «محمّد نَبِيِّ الرَّحْمَةِ»، ويعلّمه أيضاً بأن يقول: «يا مُحَمَّدٍ إنّي أتوّجهُ إليك»؟!

أضف إلى ذلك: أنّ تقدير كلمة الدعاء يجعل الجملة ركيكة، وغير متّزنة أبداً.

ثمّ إنّ السيد الآلوسي البغدادي (المتوفّى ١٢٧٠هـ) قد أذعن أمام هذا الحديث، وسلّم بالحق، واعترف بأنّه لا مانع من التوسّل بمقام ومنزلة الأفراد الصالحين أعمّ من النبيّ الأكرم ﷺ وغيره، بشرط إحراز كون الفرد المتوسّل به ذا مقام عند ربّه.(١)

---

١. انظر: روح المعاني:١٢٨/٦.

سيرة الأمم في توسّلهم بالذوات الطاهرة

إنّ من يطالع التاريخ البشري يجد أنّه يشهد وبوضوح تامّ بأنّ التوسّل بالصالحين والمعصومين والمخلصين من عباد الله كان شائعاً في أوساط بني الإنسان قبل بزوغ شمس الإسلام، وكان الموحّدون يدركون بفطرتهم النقية أنّ التوسّل بالشخصيات الطاهرة والنفوس الزاكية أمرٌ مطلوب ومرغوب فيه، ولذلك تجدهم يقصدون هذه الوسيلة للتقرّب إلى الله وطلب إجابة الدعاء وإنجاح الطلبات، ونحن نشير إلى قسم من هذه التوسّلات ليكون القارئ على علم بأنّ الفطرة السليمة تدعو الإنسان إلى التوسّل بالموجودات الطاهرة لجلب رحمته تعالى.

١. استسقاء عبد المطلب بالنبيّ وهو رضيع

يحدّثنا التاريخ أنّ مكة المكرمة وأطرافها قد أصابها قحط وجفاف وجدب كاد يهلك الحرث والنسل ويقضي على كلّ شيء، فلم يجد عبد المطلب بُدّاً إلّا أن أمسك بيد حفيده المصطفى ﷺ ـ وهو يومذاك طفل رضيع ـ واستسقى به ﷺ طالباً من الله أن ينزل

عليهم الغيث ويخلّصهم من تلك الشدّة والعسر، حتّى قال ابن حجر: إنّ أبا طالب يشير بقوله:

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ثـمالُ اليتامى عصْمةٌ للأراملِ

إلى ما وقع في زمن عبد المطلب، حيث استسقى لقريش والنبيّ معه غلام.[١]

٢. استسقاء أبي طالب بالنبيّ وهو غلام

لقد تكرّرت الحالة في فترة زعامة أبي طالب عليه السلام حيث أُصيبت قريش مرّة أُخرى بقحط وجدب، فهرع القريشيون إلى أبي طالب طالبين منه الاستسقاء، فقرّر أن يتوسّل بابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان حينذاك غلاماً ـ وقد نقل ابن عساكر تلك الحادثة عن أبي عرفة، قال:

قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلمّ فاستسقِ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ـ يعني النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كأنّه شمس دجى تجلّت عن سحابة قتماء، وحوله أُغيلمة، فأخذ النبيّ أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذَ إلى الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق وأغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب

---

١. فتح الباري: ٢/٣٩٨.

النادي والبادي.[١]

وفي ذلك يقول أبو طالب:

وابـيض يسـتسقى الغـمام بـوجهه
ثـمال اليـتامى عـصمة للأرامـل[٢]

٣. التوسّل بالأطفال والشيوخ في صلاة الاستسقاء

إنّ التوسّل بالأطفال في الاستسقاء أمرٌ ندب إليه الشارع، قال الدكتور عبد الملك السعدي: من السنّة أن نخرج معنا إلى الصحراء الشيوخ والصبيان والبهائم لعلّ الله يسقينا بسببهم.[٣]

وهذا هو الإمام الشافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: «وأُحبّ أن يخرج الصبيان ويتنظّفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهنّ، ولا أُحبّ خروج ذات الهيبة».[٤]

وجاء في الموسوعة الكويتية: يستحبّ عند المذاهب الأربعة خروج الشيوخ والضعفاء والصبيان والعجزة وغير ذات الهيبة من النساء.[٥]

---

١. دلائل النبوة ١٢٦/٢.
٢. فتح الباري: ٤٩٤/٢؛ السيرة الحلبية: ١١٦/١.
٣. البدعة: ٤٩.
٤. كتاب الأُمّ: ٢٣٠/١.
٥. الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣١٦/٣، مادة الاستسقاء.

ولا ريب أنّ الهدف من إخراج الصبية المطهّرين من الذنوب والشيوخ الذين أنهكهم الدهر، والحيوانات العجماء، هو استنزال رحمته سبحانه لأجل هؤلاء وكأنّ المستسقين يخاطبون الله تعالى بقولهم:

«اللّهمّ إن كنّا ـ لذنوبنا وقسوتنا ـ غير جديرين بإنزال الرحمة، والغيث علينا، فارحمنا يا الله بهؤلاء.

أو يقولون: ربّنا وسيدنا!! الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وهما أحقّ بالرحمة والمرحمة، فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتّى تعمّنا في ظلّهم.

هذه الحوادث وغيرها تعرب عن كون التوسّل بالموجودات الصالحة أمراً فطرياً، وكان رائجاً قبل بزوغ فجر الإسلام، ولمّا بُعث الرسول الأكرمﷺ أقرّ تلك الوسيلة، وأمضاها.

٤. توسّل الخليفة بالعباس عمّ النبيّﷺ

روى البخاري في صحيحه قال: كان عمر بن الخطاب إذا قُحِطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ﵁ وقال: اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا، قال: فيسقون.[1]

١. صحيح البخاري: ٣٢/٢، باب صلاة الاستسقاء.

والحديث صحيح السند، فما ظنك برواية رواها البخاري؟! لكن من لا يروق له التوسّل بالذوات الطاهرة أخذ يؤوّل الحديث بأنّ الخليفة توسّل بدعاء العباس لا بشخصه ومنزلته عند الله، وأضاف على ذلك: أنّه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس، بلا شكّ ولا ريب، فثبت أنّ القصد كان الدعاء.[1]

لا أظنّ أنّ أحداً يحمل شيئاً من الإنصاف، يسوّغ لنفسه أن يفسّر الحديث بما ذكره ـ أي التوسّل بالدعاء ـ لأنّ في الموضوع نصوصاً تردُّ ذلك، وإليك الإشارة إليها:

١. قول الخليفة عند الدعاء... قال: «اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا». وهذا ظاهر في أنّ الخليفة قام بالدعاء في مقام الاستسقاء، وتوسّل بعمّ الرسول في دعائه، ولو كان المقصود هو التوسّل بدعائه كان عليه أن يقول: يا عمّ رسول الله كنّا نطلب الدعاء من الرسول فيسقينا الله والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا.

٢. روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لمّا اشتدّ القحط فسقاهم الله تعالى به،

---

١. التوصل إلى حقيقة التوسّل:٢٥٣.

وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه.(١)

وأمّا ما ذكره من أنّه لو كان المقصود التوسّل بذات العبّاس لكان النبيّ بذلك أفضل، فيلاحظ عليه أنّ الهدف من إخراج عمّ النبيّ ﷺ إلى المصلّى وضمّه إلى الناس هو استنزال الرحمة فكأنّ المصلّين يقولون: ربنا إذا لم نكن مستحقّين لنزول الرحمة فإنّ عمّ النبيّ مستحقّ لها، ومن المعلوم أنّ هذا لا يتحقّق إلّا بالتوسّل بإنسان حيّ يكون شريكاً للجميع في المصير وفي هناء العيش ورغده، لا مثل النبي الراحل الخارج عن الدنيا والنازل في الآخرة.

***

بقي في المقام شيء وهو أنّ الكاتب قال في صدر البحث: لا يجوز التوسّل في الدعاء بغير المشروع ولا الذهاب إلى القبور للدعاء عندها والتبرّك بها.(٢)

فقد أراد بكلامه هذا الهمز واللمز إلى سيرتين شائعتين بين المسلمين من بعد رحيل الرسول ﷺ إلى يومنا هذا، وهما:

١. الدعاء عند ضريح النبيّ الأعظم ﷺ.

٢. التبرّك بالضريح الطاهر.

---

١. أُسد الغابة: ١١١/٣؛ الكامل في التاريخ: ٥٥٥/٢.

٢. قراءة راشدة: ٧١.

والجواب

أمّا الأوّل: فلم يقل أحد بأنّ من شروط استجابة الدعاء هو الذهاب إلى القبور، فهذا التعبير تعبير غير جميل، نعم الدعاء عند الأماكن المتبرّكة يعجّل في استجابة الدعاء ويؤثّر فيها. فالمكان الذي احتضن جثمان النبي الأعظمﷺ قد اكتسب مكانة مقدّسة عند الله سبحانه، ولذلك يكون الدعاء هناك أقرب للاستجابة. ولذلك نرى أنّه عندما اكتشف المؤمنون الموحّدون المكانَ الذي اختفى فيه الفتية (أصحاب الكهف) أخذوا يتداولون الأمر بينهم: ماذا نعمل؟ فكان إطباق الجميع واتّفاقهم على أن يبنوا على قبورهم مسجداً ليكون محلاً للعبادة والتبرّك بالعبادة إلى جنب تلك الأجساد الطاهرة، ولقد نقل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله سبحانه: **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾**.[1]

قال المفسّرون: إنّ الهدف من بناء المسجد هو إقامة الصلاة والتبرّك بأجسادهم الطاهرة.

وقد ذكر غير واحد ممّن ألّف في زيارة النبيّﷺ الدعاء عند رأسه بالنحو التالي: يقف عند رأسه الشريف ويقول: اللّهمّ إنّك قلت وقولك الحق: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾** وقد جئناك سامعين

١. الكهف:٢١.

قولك، طائعين أمرك، مستشفعين بنبيّك، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[١]

ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع فليرجع إلى كتابنا«الوهابية في الميزان».

وأمّا الأمر الثاني، أي التبرك بالضريح الطاهر، فليس أمراً بديعاً. وتشهد عليه قصّة تابوت بني إسرائيل.

تابوت بني إسرائيل وإنزال السكينة

لقد وضع موسى عليه السلام وفي الأيام الأخيرة من عمره الشريف، الألواح المقدّسة التي تحتوي على شريعته عليه السلام، ودرعه وسلاحه وآثاره الأُخرى في صندوق، وجعل الصندوق عند وصيّه«يوشع بن نون»، ومن هنا اكتسب هذا الصندوق أهميّة كبرى لدى بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم أثناء الحروب التي تقع بينهم وبين خصومهم متبرّكين به، ومستنزلين النصر من الله عن طريقه، وكانوا يعيشون

١. لاحظ: مراقي الفلاح بإمداد الفتّاح للشيخ حسن بن عمّار الشرنبلالي الحنفي:١٥٢، إحياء علوم الدين للغزالي: ٢٣٢/١.

حياة عزيزة مادام ذلك الصندوق المبارك بين ظهرانيهم، ولكن لما دبّ فيهم الضعف الديني، وقلّ تأثير الوازع الأخلاقي في أوساطهم، تمكّن خصومهم من هزيمتهم والتغلّب عليهم، وتمكّنوا من نهب ذلك الصندوق المبارك.

ولمّا اختار الله سبحانه ـ بعد فترة من الزمن ـ طالوت ملكاً وقائداً لبني إسرائيل، قال لهم نبيّهم: إن علامة صدقه وكونه قائداً منصوباً من قبله سبحانه هو أن يأتيكم ذلك الصندوق، ولقد أشار الذكر الحكيم إلى تلك الحقيقة بقوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.[١]

والإمعان في الآية المباركة يكشف عن أنّ القرآن الكريم ينقل لنا على لسان نبيّه، تبرّك بني إسرائيل بذلك الصندوق ويؤكّد كذلك مدى قيمته وشرفه بحيث تحمله الملائكة.

وحينئذٍ نسأل الكاتب ومَن على عقيدته: لو كان هذا العمل مخالفاً لأُصول التوحيد ومتعارضاً معها، فكيف ياترى جاز لذلك النبيّ أن يلقي إليهم الخبر على نحو البُشرى؟!

نقول: إنّ ضريح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذي يحتضن جثمان أشرف المخلوقات وأعزّها عند الله لا يقصر عن التابوت الذي فيه ألبسة

١. البقرة:٢٤٨.

موسى عليه السلام وعصاه، كيف وقد تواتر ذكر تبرُّك الصحابة بقبر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب الحديثية.[١]

وقد بسطنا الكلام في التبرُّك بآثار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في كتابنا: «الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية»، فراجع.

١. لاحظ: مستدرك الحاكم: ٤/٥٦٠، برقم ٨٥٧١؛ أُسد الغابة: ١/٢٨، تبرّك بنت المصطفى بقبر أبيها.

المبحث الثامن

العبادات

قال الكاتب: ومن كتاب له‌عليه‌السلام إلى أُمراء البلاد في معنى الصلاة: «أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّىٰ تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ ٱلْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ. وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ ٱلْحَاجُّ إِلَىٰ مِنًى. وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَىٰ الشَّفَقُ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ، وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ».(١)

أقول: إنّ الكاتب في هذا المبحث يريد الردّ على عمل الشيعة في الجمع بين الصلاتين في الحضر حيث يجمعون بين الظهر والعصر كما أنّهم يجمعون بين المغرب والعشاء كذلك، وربما

---

١. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٥٢؛ قراءة راشدة:٧٦.

يتصوّر غير العارف أنّ الجامع يصلي إحدى الصلاتين في غير وقتها، ولكنّه عزب عن باله أنّه يأتي بإحدى الصلاتين في غير وقت الفضيلة ولكنّه يأتي بها في وقت الإجزاء، ولا غرو أن يكون لكلّ صلاة أوقات ثلاثة:

أ. وقت الاختصاص، كما في أربع ركعات من أوّل الوقت وآخره، أو ثلاث ركعات بعد المغرب وأربع ركعات قبل نصف الليل.

ب. وقت الفضيلة، فوقت فضيلة الظهر من الزوال إلىٰ بلوغ ظلّ الشاخص الحادث بعد الانعدام أو بعد الانتهاء، مثله، ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين عند المشهور.

وبذلك يعلم وقت المغرب والعشاء، فإذا غربت الشمس دخل الوقتان إلى نصف الليل، ويختصّ المغرب بأوّله بمقدار أدائها، والعشاء بآخره كذلك، وما بينهما وقت مشترك، ومع ذلك فإنّ لكلٍّ من الصلاتين وقتَ فضيلة، فوقت فضيلة صلاة المغرب من المغرب إلى ذهاب الشّفق وهو الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشّفق إلى ثلث الليل.[١]

ج. وقت الإجزاء، وهو مطلق ما بين الحدّين إلّا ما يختصّ بإحدى الصلاتين فيكون وقت الإجزاء أعمّ من وقت الفضيلة

---

١. لاحظ: العروة الوثقى: ١٧١، فصل في أوقات اليومية.

وخارجه.

وقد تضافرت الروايات عن أئمّة أهل البيتعليهم السلام أنّه إذا زالت الشمس دخل الوقتان إلّا أنّ هذه قبل هذه.[1]

وعلى ما ذكرنا فما ذكره الإمام عليّعليه السلام من التفصيل ناظر إلى أوقات الفضيلة، لا إلى أوقات الإجزاء، فمَن فرّق فقد أتىٰ بالصلاة في وقت الفضيلة، ومن جمع فقد أتىٰ بالصلاة في وقت الإجزاء وفاتته الفضيلة. ولكن رافقه التيسير وعدم الحرج المطلوب في الشريعة المقدّسة.

ويدلّ على أنّ الجمع بين الصلاتين ليس إلّا إتيان إحداهنّ في غير وقت الفضيلة، أنّه اتّفقت كلمة الفقهاء على رجحان الجمع بين الصلاتين في المزدلفة وعرفة من غير خلاف بينهم، قال القرطبي: أجمعوا على أنّ الجمع بين الظهر والعصر في وقت الظهر بعرفة وبين المغرب و العشاء بالمزدلفة أيضاً، وإنّما اختلفوا في الجمع في غير هذين المكانين.[2]

كما أنّه ذهب جمع من الفقهاء إلى الجمع بين الصلاتين في السفر، قال الشوكاني: ذهب إلى جوازه (الجمع في السفر) مطلقاً تقديماً وتأخيراً كثير من الصحابة والتابعين، ومن الفقهاء: الثوري

---

١. لاحظ: من لا يحضره الفقيه: ١/١٤٠.

٢. بداية المجتهد: ١/١٧٠، تحت عنوان الفصل الثاني في الجمع.

والشافعي وأحمد وإسحاق وأشهب.[١]

كما أنّ المشهور الجمع بين الصلاتين في الحضر لأجل العُذر، قال ابن رشد: أمّا الجمع في الحضر لعذر المطر فأجازه الشافعي... إلى أن قال: وأمّا الجمع في الحضر للمريض فإنّ مالكاً أباحه له إذا خاف أن يُغمى عليه أو يكون به بطن، ومنع ذلك الشافعي.[٢]

نعم، بقي الكلام حول الجمع بين الصلاتين في الحضر اختياراً.

أقول: قد تضافرت الروايات عن الصادق بالحقﷺ على جواز الجمع بين الصلاتين في الحضر اختياراً، رواها أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، ويبلغ عددها إلى ثلاثين حديثاً، وتنتهي الأسانيد إلى الأشخاص التالية أسماؤهم:

١. عبد الله بن عباس، حبر الأُمّة.

٢. عبد الله بن عمر.

٣. أبو أيّوب الأنصاري، مضيّف النبيﷺ.

٤. أبو هريرة الدوسي.

٥. جابر بن عبد الله الأنصاري.

٦. عبد الله بن مسعود.

والروايات صريحة في أنّ رسول اللهﷺ جمع بالمدينة بين

---

١. نيل الأوطار:٣/٢٦١.

٢. بداية المجتهد:١/١٧٣.

الصلاتين من غير خوف ولا مطر ولا علّة، جمع لبيان جواز الجمع ومشروعيته لئلّا يتوهّم متوهّم بأنّ التفريق فريضة لما كانﷺ يستمر على التوقيت والإتيان في وقت الفضيلة، ولكنّه بعمله أثبت أنّ الجمع جائز وإن كان التوقيت أي التفريق أفضل.

وللاطلاع على مصادر الروايات تُراجع المصادر التالية: شرح صحيح مسلم للنووي:٥/٢١٣ ـ ٢١٨؛ صحيح البخاري:١/١١٠ـ١١٣؛ سنن الترمذي:١/٣٥٤؛ مسند أحمد:١/٢٢١، ٢٢٣، ٢٥١؛ موطّأ مالك: ١/١٤٤؛ سنن أبي داود:٢/٦؛ سنن النسائي:١/٢٩٠؛ حلية الأولياء: ٣/٩٠؛ المعجم الكبير:١٠/٢٦٩.

الفصل الأخير

متفرّقات وشوارد

أورد الكاتب في هذا الفصل شوارد ومتفرّقات، وقال عنها: شوارد ومتفرّقات لأنّها ليس فيها ناظم ينظمها.

انقطاع خبر السماء بموت النبيّ

وذكر تحت هذا العنوان قول الإمام عليعليه السلام: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ ٱللهِ! لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَٱلْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ ٱلْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَٱلْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلٰكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! آذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَآجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!».[١]

ثمّ إنّه رتّب على ما ذكر أمرين:

أ. إخبار عليّ بأنّ أخبار السماء والملائكة المرسلة انقطعت، فلا تنزل أبداً.

ب. والأمر الثاني هو الجزع على المصيبة، ولهذا مبحث قادم سنذكره لاحقاً.[٢]

الجواب: مرّ عليك أنّ الكاتب ذكر في عنوان البحث أنّها شوارد ومتفرّقات لأنّها ليس فيها ناظم ينظمها، وهذا ما يدّعيه لفظاً ولكن الناظم الواقعي هو سعيه للعثور على شيء يصلح ظاهراً للردّ على الشيعة، وإلّا فالمتفرّقات والشوارد في نهج البلاغة أكثر وأكثر من ذلك، وربما تزيد على أربعمئة، في قسم الحكم.

وعلى أي تقدير، فالغرض الأقصى من نقل هذا الكلام هو نقد ما عليه الشيعة من أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون الغيب بتعليم من الله سبحانه، فزعم الكاتب أنّ قول الإمام:«لَقَدِ آنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَآلْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ» ردّ على هذا الأصل، ولكنّه غفل عن أنّ الفقرة بصدد بيان أنّ النبوّة ختمت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه لا خبر بعده من السماء، وأمّا إخبار جماعة من صلحاء

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٢٣٥.

٢. قراءة راشدة: ٨٠.

الأُمّة وأئمتهم عن الأُمور الغيبية بتعليم من الله فليست الفقرة ناظرة إلى ردّه، والشاهد على ذلك اتّفاق المسلمين على وجود المحدَّث بينهم.

ولأجل إيقاف القارئ على معنى «المحدَّث» في الإسلام ومفهومه نذكر شيئاً في توضيحه: المحدَّث: هو مَنْ تكلِّمه الملائكة بلا نبوّة ورؤية صورة، أو يُلهم ويُلقىٰ في رُوعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفة من المبدأ الأعلى، أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفىٰ على غيره.

فالمحدّث بهذا المعنى متّفق عليه بين فرق المسلمين، بيد أنّ الخلاف في مصاديقه، فالشيعة ترى أنّ عليّاً أمير المؤمنين وأولاده أئمة أهل البيت من المحدَّثين، وأهل السنّة يرون أنّ منهم عمر بن الخطاب.

أخرج البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر عن أبي هريرة: قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر».[1]

وأمّا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد تنبّأ ـ بما أنّه محدَّث ـ بملاحم وأحداث وفتن في حياته وبعد رحيله، وقد ورد قسم منها في نهج

١. صحيح البخاري: ج ٢، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم ٣٦٨٩.

البلاغة، نذكر شيئاً طفيفاً منها:

١. قام خطيباً في البصرة مخاطباً أهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال:«كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ ٱللهُ عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِها، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا».(١)

٢. لما أُخذ مروان أسيراً يوم الجمل قال: «أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ. وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ ٱلْأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَىٰ ٱلْأُمَّةُ مِنْهُ وَ مِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَا».(٢)

وفسّروا الأكبش الأربعة بولد عبد الملك بن مروان وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، الذين سوّدوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الإنسانية بجناياتهم الموبقة، وخزاياهم المهلكة.

هذا ومن أراد أن يقف على تنبؤات الإمامعليه السلام في نهج البلاغة، فليرجع إلى كتابنا «مفاهيم القرآن».(٣)

ثمّ إنّ الكاتب استنتج من هذا الكلام مسألة الجزع على المصيبة وأيّده بكلام آخر للإمام يقول فيه: «يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمُصِيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَىٰ فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ عَمَلُهُ (أجره)».(٤)

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١١.

٢. نهج البلاغة: الخطبة٧٣.

٣. لاحظ:مفاهيم القرآن:٣/٤٧٠ـ ٤٨٢.

٤. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٤٤.

فرتّب على هذين الأمرين قوله: مَن يضرب على فخذه فقط يحبط أجره، ثم أوصل الكلام إلى ضرب القامات وشقّ الجيوب والضرب بالسيوف[1]، والجواب يتمّ ببيان مقامين:

المقام الأوّل: البكاء على الميّت

الحزن والتأثّر عند فقدان الأحبّة أمر جُبلت عليه الفطرة الإنسانية، فإذا ابتلي الإنسان بمصاب عزيز من أعزّائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، يحسّ بحزن شديد يتعقّبه ذرف الدموع على وجناته، ولا يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحداً ينكر هذه الحقيقة إنكار جدٍ وموضوعية، ومن الواضح بمكان أنّ الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾**.[2]

ولا يمكن لتشريع سماوي أن يحرّم الحزن والبكاء على فقد الأحبّة إذا لم يقترن بشيء يغضب الربّ.

ومن حسن الحظ نرى أنّ النبيّ ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

---

١. لاحظ: قراءة راشدة: ٨١.

٢. الروم: ٣٠.

فهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده إبراهيم، ويقول: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضي ربَّنا، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون».[١]

وروى أصحاب السِّيَر والتاريخ، أنّه لمّا احتُضر إبراهيم ابن النبيّ، جاء ﷺ فوجده في حجر أُمّه، فأخذه ووضعهُ في حجره، وقال: «يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً ـ ثمّ ذرفت عيناه ـ وقال: إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ، ولولا أنّه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ وأنّها سبيل مأتيّة لحزَنّا عليك حزناً شديداً أشدّ من هذا».

ولمّا قال له عبد الرحمن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيتُ عن صوتين أحمقين وآخرين، صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشقّ جيوب ورنّة شيطان، وصوت عند نغمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحَم».[٢]

وليس هذا أوّل وآخر بكاء منه ﷺ عند ابتلائه بمصاب أعزّائه، بل بكى ﷺ على ابنه «طاهر» وقال: «إنّ العين تذرف وإنّ الدمع يغلب والقلب يحزن، ولا نعصي الله عزّ وجلّ».[٣]

---

١. سنن أبي داود: ٥٨/١؛ سنن ابن ماجة: ٤٨٢/١.

٢. السيرة الحلبية: ٣٤٨/٣.

٣. مجمع الزوائد للهيثمي: ٨/٣.

وقد قام العلّامة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكىٰ فيها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزّائهم عند افتقادهم، وإليك نصّ ما جاء به ذلك المتتبِّع الخبير:

وهذا هو صلى الله عليه وآله وسلم لمّا أُصيب حمزة عليه السلام وجاءت صفيّة بنت عبد المطلّب ـ رضي الله عنها ـ تطلبه، فحال بينها وبينه الأنصار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا نشجت نَشَجَ، وكانت فاطمة عليها السلام تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّما بكت يبكي، وقال: لن أُصاب بمثلك أبداً.(١)

ولمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أُحد بكت نساء الأنصار على شهدائهنّ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لكنّ حمزة لا بواكي له»، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحداً حتّى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميّتاً إلّا بدأن بحمزة.(٢)

وهذا هو صلى الله عليه وآله وسلم ينعى جعفراً، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعيناه تذرفان.(٣)

وهذا هو صلى الله عليه وآله وسلم زار قبر أُمّه وبكىٰ عليها وأبكىٰ من حوله.(٤)

---

١. إمتاع الأسماع للمقريزي: ١/١٦٧ـ١٦٨.

٢. مجمع الزوائد: ٦/١٢٠.

٣. صحيح البخاري: ٤/١٨٤، كتاب المناقب في علامات النبوّة في الإسلام؛ سنن البيهقي: ٤/٧٠.

٤. سنن البيهقي: ٤/٧٠؛ تاريخ الخطيب البغدادي: ٧/٢٨٩.

وهذا هو ﷺ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميّت ودموعه تسيل على خدّه.(١)

وهذا هو ﷺ يبكي على ابن لبعض بناته، فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: «الرحمة التي جعلها الله في بني آدم، وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء».(٢)

وهذه الصدّيقة الطاهرة عليها السلام تبكي على رسول الله ﷺ، وتقول: «يا أبتاه مَن ربُّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه».(٣)

المقام الثاني: ضرب القامات وشق الجيوب

وهو ما أشار إليه من ضرب القامات وشقّ الجيوب والضرب بالسيوف، فإنّها أُمور لا تنطبق على الشرع، ولا يوافقها فقه الإمام عليه السلام ولا فقه بقية أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وقد رفضها كثير من مراجع الفتيا، والكاتب لم يُشر إلى تلك الفتاوى، وكأنّه من رماة القول على عواهنه.

ثمّ إنّه أيّد كلامه بقوله: اقرأ ما جاء في النهج: وروي أنّه عليه السلام، لمّا

---

١. سنن أبي داود:٢/٦٣؛ سنن ابن ماجة: ١/٤٤٥.

٢. سنن أبي داود:٢/٥٨؛ سنن ابن ماجة: ١/٤٨١.

٣. صحيح البخاري:٥/١٤٤، باب مرض النبي ووفاته؛ مسند أبي داود:٢/١٩٧؛ سنن النسائي:٤/١٣؛ مستدرك الحاكم:٣/١٦٣؛ تاريخ الخطيب:٦/٢٦٢.

ورد الكوفة قادماً من صفين مرّ بالشّباميّين، فسمع بكاء النساء على قتلى صفين، وخرج إليه حرب بن شُرَحْبِيل الشّبامي، وكان من وجوه قومه، فقال عليه السلام له: «أَتَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْمَعُ؟ أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّنِينِ؟».[١]

وعلّق عليه بقوله: وكان هذا بكاء طبيعياً، ويعبّر عن حرارة الموقف وجدّته، ونهى عنه فكيف بغيره؟[٢]

أقول: قد فُسّر الرنين بالصوت.[٣] ومن المعلوم أنّه ليس بالأمر المحرّم، وقد تقدّم قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن حمزة لا بواكي له» فرجع الأنصار وقالوا لنسائهم لا تبكين أحداً حتى تبدأن بحمزة، وهذا قرينة على أنّ نهي الإمام عليه السلام هنا له أسبابه الخاصّة، كشماتة المنافقين، أو تثبيت المجاهدين. ثمّ إنّ الغالب في بكائهنّ على الميّت التفوّه بالباطل، إلى غير ذلك من الأسباب التي سبّبت نهي الإمام عن البكاء، مع كونه أمراً مطلوباً إذا تجرّد عن عدم الرضا بقضاء الله وقدره.

وحصيلة الكلام: إنّ البكاء على الميّت على ضربين:

تارة يكون بسبب فقدان الأحبّة، وهذا أمر جبلت عليه الفطرة

١. نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ٣٣٠.
٢. قراءة راشدة: ٨١ـ ٨٢.
٣. شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٢٣٤.

الإنسانية، فكلّ إنسان سليم الفطرة إذا فقد أحد أعزائه، يحسّ بحزن شديد يتعقّبه البكاء، ولا يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

وأُخرى أنّه يبكي ويضرب على فخذه ويجزع معترضاً على قضاء الله وقدره، فلا شكّ أنّه أمر محرّم، والكاتب لم يفرّق بين مطلوب الفطرة والأمر المحرّم.

***

دعوى التساوي بين ولاة عليّ وولاة غيره

ذكر الكاتب تحت عنوان: (عمّال علي بعض عتاباته لولاته وعمّاله)، ثم رتّب على ذلك أنّ عمّاله عليه السلام كعمّال غيره فيهم الأعلى والأوسط والأدنى.[1]

أقول: إنّ تاريخ الخلافة الإسلامية ذكر قبائح الأعمال لعدد كبير من الولاة والقادة في عهد الخلفاء خصوصاً في عهد الثالث، وهانحن نذكر شيئاً قليلاً من ذلك:

١. خالد بن الوليد

ذكرت مصادر التاريخ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعث مالك بن نُوَيرة على صدقة بني يربوع، وكان قد أسلم هو وأخوه متمّم بن نويرة الشاعر.

---

١. لاحظ: قراءة راشدة: ٨٤ـ ٨٥.

ولمّا ارتحل النبيّ ﷺ شاع الارتداد في القبائل، وبعث أبوبكر خالد ابن الوليد ليطفئ هذه الفتنة، ولكنّ خالداً تجاوز الحدّ فقتل الصحابي: مالك بن نويرة، ولم يقتصر على قتله فحسب، بل زنىٰ بزوجته أيضاً.[١]

أقسم عليك بالله ـ أيّها القارئ ـ هل كان من ولاة علي عليه السلام من يقوم بذلك العمل، حتى يقول الكاتب أنّ ولاة علي كولاة من سبقه.

٢. الوليد بن عقبة

اتّفق المفسرون على أنّ قوله سبحانه: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾[٢] نزلت في حقّه. وحديثه وكذبه على بني المصطلق أمر معروف.

ثمّ إنّ فسق الوليد لم يقتصر على حياته في عصر النبوّة، بل امتدّ إلى سائر أيام حياته، وتجلّى بشكل سافر في عهد عثمان بن عفان، الذي ولّاه الكوفة وعزل عنها سعد بن أبي وقّاص، فصلّى ـ في أحد الأيام ـ بالناس الفجر أربعاً وهو سكران، ثم التفت وقال: أزيدكم؟ فبلغ عثمان، فطلبه، وحدّه.[٣]

ثمّ إنّ أخبار الوليد هذا في شرب الخمر ومنادمته أبا زبيد الطائي

---

١. لاحظ: الاستيعاب:١٣٦٢/٣، برقم ٢٣٠٣؛ مختصر تاريخ دمشق:١٩/٨؛ سير أعلام النبلاء:٢٣٥/٣، ترجمة خالد برقم ٨٣؛ تاريخ الطبري:٢٧٢/٢.

٢. الحجرات:٦.

٣. سير أعلام النبلاء:٤١٤/٣؛ وانظر: الاستيعاب:١٥٥٥/٤.

مشهورة كثيرة... وله أخبار فيها نكارة وشناعة تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله.[١]

فهل في ولاة علي عليه السلام مثل هذا الأنموذج الفاسق، حاشا وكلّا.

نعم كان بين عمال الإمام عليه السلام من خرج عن الأوصاف التي يجب أن يتحلّىٰ بها الوالي العادل، ولذلك كان الإمام عليه السلام يوبخّه ويزجره بسبب تصرفاته التي لا تنسجم مع الأوصاف التي يريدها الإمام منه.

ولذلك كتب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ـ وكان عامله على البصرة ـ وقد بلغه أنّه دُعي إلىٰ وليمة قوم من أهلها فمضى إليها، وإليك الرسالة:

«أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْفٍ! فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».[٢]

فهل من الإنصاف أن نساوي بين هذا العمل وبين شرب الخمر أو قتل النفس المحترمة وأمثال ذلك؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

وبذلك تظهر ضآلة قول الكاتب: إنّ عمّاله عليه السلام كعمّال غيره،

١. الاستيعاب: ٤/١٥٥٤.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٤٥.

فيهم الأعلى والأوسط والأدنى.[١]

نعم إنّ عمالهعليه السلام كانوا مختلفين في التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل، ولكن لم يكونوا زناة، ولا شاربي خمر، ولا... ولا... .

ثمّ إنّ الكاتب ختم هذا المبحث بقوله: وهكذا البشر يتفاوتون، فقويٌّ في العبادة ضعيف في الإدارة، ضعيف في الإدارة قويّ في الحرب، ضعيف في العبادة قوي في القتال... وهكذا، فلا عيب على عليّ ولا غير عليّ إن كان هناك ضعف أو خور.[٢]

أقول: ماذا يُريد الكاتب من هذه الفقرة؟

فمَن وقف على نفسية المؤلّف يذعن بأنّه ينوي الهمز واللمز في الإمام عليعليه السلام بأنّه كان قوياً في العبادة والقتال ولكنّه ضعيف في الإدارة، ويشهد على ذلك، قوله: «فلا عيب على عليّ ولا غير عليّ إن كان هناك ضعف أو خور».

لقد كان الإمامعليه السلام قوياً في الإدارة، فقد أدار أُمور المسلمين طيلة خمسة أعوام، ولم يظهر منه فتور أو ضعف، وكانت عامّة البلاد تحت يده، إلّا الشام الذي لم يبايعه حين بايعه المهاجرون والأنصار.

نعم تختلف إدارة الإمامعليه السلام عن إدارة غيره، بأنّها لا تخرج عن

---

١. قراءة راشدة:٨٥.

٢. قراءة راشدة:٨٥.

الضوابط الدينية قيد شعرة، وقد اتُّهم عليّ في حياته بأنّ معاوية أدهى منه فقال عليه السلام في ردّ ذلك: «وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ».[١]

إنّ الإمام استلم زمام الخلافة وقد خرج أغلب أبناء المجتمع الإسلامي ممّا كانوا عليه في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله من التعبّد بالشرع، والاجتناب عن جمع الأموال واقتناء الذهب والفضة، وتملُّك الضياع والبساتين، فعندما أراد الإمام أن يردّ الأُمّة الإسلامية إلى ما كانت عليه، صار ذلك ثقيلاً على أصحاب الثروات وطلاب الدنيا وأصحاب المقام، ولذلك أصبحوا ناكثين ومارقين وقاسطين، ويشير الإمام عليه السلام إلى هذه النكسة بقوله: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَ مَرَقَتْ أُخْرَىٰ، وَقَسَطَ آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] بَلَىٰ! وَٱللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا!».[٣]

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٢٠٠.

٢. القصص: ٨٣.

٣. نهج البلاغة: الخطبة٣.

خاتمة الرسالة

قال الكاتب في الخاتمة: وبعد؛ فقد صدق الإمام عندما قال: «هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ».[١]

فالمحبّ الغالي لن يرى كلّ شيء إلّا حسناً، والمبغض القالي لن يرى الشيء إلّا سيئاً، والوسطية مطلوبة، فـ«حبّ علي من الإيمان، وبغضه من النفاق» كما صحّ في حديث مسلم، فلا نرفعه إلىٰ درجة الأنبياء، ولا ننزله إلىٰ درجة الفسّاق وغيرهم.[٢]

أقول: لا أدري ماذا يُريد بقوله: فلا نرفعه إلى درجة الأنبياء؟ هل يوجد بين الأُمّة الإسلامية ممّن يُعتدّ بقوله ودينه يرفع الإمام إلى درجة الأنبياء؟ فمَن قال بأنّه إمام منصوص عليه من جانب الله سبحانه يوم الغدير وأنّه يقوم بوظائف النبوة سوى الوحي

---

١. نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ١١٧.

٢. قراءة راشدة:٨٦.

والتشريع، هل رفعه إلى درجة الأنبياء؟ وإذا كان الإمام باب علم النبيّ ﷺ وقد قال فيه الرسول ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها» فالرجوع إليه في الحلال والحرام لا يلازم كونه نبيّاً، وإنّما هو وارث لعلوم النبيّ ﷺ.

وصية الجميعان للقرّاء

يقول الكاتب: وفقنا الله لكلّ خير، هذا جهدي وقد اجتهدت، فإن وجدت خيراً أيّها القارئ الكريم فلا تنسنا من دعاء بليل، وإن كان خطأ فأستغفر الله، وأرجو منك أن تسأل الله لي المغفرة، لأنّني ما تعمدت الخطأ، وكلّ ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون.[١]

أقول: نحن خضوعاً لطلب الكاتب نسأل الله له المغفرة لأنّه حرّف الكلم عن مواضعها وحمل كلام الإمام على خلاف مقاصده، وأخذ بفقرات من كلامه وأعرض عن ذكر ما يرفع النقاب عن مقاصده الحقيقية.

ومع ذلك نحن نسأل الله المغفرة له ولعامّة المسلمين ولكلّ من يشهد بالله ربّاً، وبمحمد ﷺ نبيّاً، وبالكعبة قبلة، وبالقرآن كتاباً. اللّهم آمين.

---

١. قراءة راشدة:٨٦

كما نسأله سبحانه أن يرزق المسلمين توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد، ويجعلهم يداً واحدة بوجه الأعداء والصهاينة، ومن هو بصدد تطبيع العلاقات معهم، وتسليط الأعداء على أوّل قبلة للمسلمين. آمين يا ربّ العالمين.

نصيحة

لمؤسّسي «مبرّة الآل والأصحاب»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنّ عنوان كلّ مؤسّسة ـ سواء أكانت دينية أم سياسية... ـ يُعرب عن أهدافها وأغراضها، وقد اتّخذ أصحاب المبرّة ذاك العنوان شعاراً دالّاً على ما يبتغونه، وظاهر العنوان يحكي عن أنّ المؤسّسين يحملون هموم الأُمّة الإسلامية لأجل تفرّقهم وتشرذمهم، فقاموا لأجل تقريب الخطى وتأليف شتات الأُمّة بتأسيس هذه المبرة لتحقيق تلك الغاية المنشودة.

أقول: لو كان هذا هو الغرض الأقصى، فنعم الغرض، لكن إصدارات المؤسّسة مازالت تعكس لنا خلاف ذلك، وسنشير إلى بعض عناوينها، وبذلك يظن الألمعي بأنّ ضمّ الآل إلى الأصحاب ليس إلّا واجهة لاستقطاب أنظار شباب الشيعة إلى برامجهم من دون أن يكون فيها شيءٌ من (الآل)، بل الغاية هي إبعادهم عن عقائدهم التي تعلموها من رسول الله ﷺ وعترته الطاهرة، فالخبير يذعن بأنّ

العنوان ما هو إلّا مكيدة، ومصيدة للشباب.

وها نحن نذكر أُنموذجين من عناوين بعض ما صدر من المبرّة والتي تسير في تحقيق هذا الهدف:

١. نحو وحدة إسلامية حقيقية، مواقيت الصلاة نموذجاً، تأليف الدكتور طه حامد الديلمي.

وفيه تخطئة للشيعة في جمعهم بين الصلاتين: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء

٢. الحوار الذي أُجري مع الشيخ محمد سالم الخضر حول صوم يوم عاشوراء. وقد أكّد على صيامه الذي تبرّك به بنو أُمية لقتلهم الحسين عليه السلام.

وقد صدر أخيراً كتاب **«قراءة راشدة لنهج البلاغة»** بقلم: عبد الرحمن الجميعان، فقد قرأ «نهج البلاغة» لا للاستضاءة بأنواره أو للانتهال من منهله العذب، بل لغاية نقد عقائد الشيعة حسب استنتاجاته الشخصية من كلمات وخطب الإمام علي عليه السلام.

ويا ليت أنّه قرأ «النهج» متجرّداً عن كلّ رأي وعقيدة مسبقة، مع رعاية الأمانة العلمية في النقل والاستنباط، ولكن ما أبعد بينه وبين تلك الأُمنية، فتارة ينقل كلام الإمام على غير وجهه، وأُخرى يحمله على ما لا يرومه الإمام عليه السلام، وثالثة يستدلّ ببعض خطبه التي ليس فيها أية إشارة إلى ما يُريد الكاتب إثباته.

وحبذا لو كانت إصداراتهم مركّزة في العقائد والفقه على ما عليه

جمهور أهل السنّة فإنّهم في المسائل العقدية بين أشعري وماتريدي، وفي الفقه ينتمون إلى أحد المذاهب الفقهية الأربعة ولكنّ منشورات المبرّة على خلاف ما عليه جمهور أهل السنّة، فهم في الاعتقادات من دعاة الوهابية المهتمين بنشرها بأيّة وسيلة، ولنأت بمثال:

ألّف واحد منهم كتاباً في سيرة الإمام أبي جعفر الباقرعليه السلام (مع غض النظر عمّا في ثنايا الكتاب من غثّ وسمين) فقد زيّن غلاف كتابه بالحديث المروي عنهعليه السلام، قال: كان من دعاء الإمام الباقرعليه السلام: «اللّهم من كانت له حاجة هاهنا وهاهنا، فإنّ حاجتي إليك وحدك لا شريك لك».

إنّ الغاية من كتابة هذا الحديث على غلاف الكتاب هو الردّ على المسلمين في مسألة التوسّل زاعماً بأنّ عملهم على خلاف ما عليه الإمام الباقرعليه السلام. والمسكين لم يفرّق بين توسّل مشروع وتوسّل ممنوع، فالتوسّل بالنبيصلى الله عليه وآله وسلم حتى يدعو الله تبارك وتعالى ليقضي حاجة المتوسّل به، توسّل مشروع وهذا ملؤه التوحيد، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنّة.

وأمّا التوسّل باعتقاد أنّ المتوسّل به بيده مصير المتوسّل في قضاء الحاجة، فهذا توسّل ممنوع، والإمامعليه السلام بصدد ردّ الوثنيّين الذين كانوا يتصوّرون أن بيد آلهتهم مصيرهم أو الغلاة من غيرهم، والشاهد على ذلك ذيل الحديث حيث يقول: «لا شريك لك» فإنّ

الشرك في الصورة الثانية لا الأُولى.وفي ثنايا الكتاب الذي قدّمناه للقرّاء بحث واف حول التوسّل.

ولا ينقضي عجبنا إذ نرى أنّ مؤلّف الكتاب في سيرة الإمام الباقر عليه السلام ذكر أنّ عبد الله بن عمر ـ الذي لا يفقه شروط طلاق زوجته ـ جعله أحد شيوخ الإمام عليه السلام.(١)

ونحن نقترح على رئيس المبرّة ومديرها بالقيام بنشر ما فيه رضا الله تعالى ومصلحة الأُمّة الإسلامية وتوعية الشباب على محاسن المعارف الإسلامية، والعمل على تقوية الأُمّة الإسلامية للوقوف بوجه أعدائها وناهبي خيراتها.

ولو حاول أحد من الكتاب أن يبيّن عقائد بعض الفرق ويعرضها على القرّاء، فيجب أن يترك هذا الأمر الحسّاس إلى عالم طاهر القلب ذي أمانة علمية يعرف عقائدها وأُصولها.

هذه نصيحتي لمسؤولي المبرّة المحترمين، عسى أن تقع موضع القبول عندهم.

والله من وراء القصد.

جعفر السبحاني

قم المقدّسة

٢٧ شوال المكرم من شهور عام ١٤٤٠هـ

---

١. الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: ١٥٢.

فهرس لأهمّ المراجع والمصادر

ن تبرّك بذكر القرآن الكريم أوّلاً

١. *إحياء علوم الدين*: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٢. *الاستيعاب* (المطبوع في حاشية الإصابة): ابن عبدالبر (المتوفّى ٤٦٣ هـ)، دار النهضة، مصر، القاهرة.

٣. *الإمامة والسياسة*: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفّى ٢٧٦هـ)، مطبعة مصطفى محمد، مصر.

٤. *إمتاع الأسماع*: أحمد بن علي المقريزي (المتوفّى ٨٤٥هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٥. *الأُم*: محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨ هـ.

٦. *أُسد الغابة*: ابن الأثير الجزري (المتوفّى ٦٣٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧. *أعيان الشيعة*: محسن الأمين العاملي (المتوفّى ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٨. *بداية المجتهد*: ابن رشد محمد بن أحمد القرطبي (٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ) دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٩. *البدعة:* عبدالملك عبدالرحمن السعدي، مطبعة النواعير، الرمادي، ١٩٩٢م.

١٠. *تاريخ بغداد:* أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفّى ٤٦٣ هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

١١. *تاريخ الطبري (تاريخ الأُمم والملوك):* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفّى ٣١٠ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

١٢. *تحف العقول:* الحسن بن علي الحرّاني (من أعلام القرن الرابع الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٤هـ.

١٣. *تذكرة الخواص:* السبط ابن الجوزي (المتوفّى ٦٥٤هـ)، طبعة مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، بيروت، ١٤٠١هـ.

١٤. *التوصل إلى حقيقة التوسّل:* محمد نسيب الرفاعي، بيروت ـ ١٣٩٤ هـ.

١٥. *الدر المنثور:* جلال الدين السيوطي (٨٤٩ـ ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٦. *ديوان حافظ إبراهيم المصري* (المتوفّى ١٣٥١هـ)، طبعة دار الجيل، بيروت.

١٧. *الذريعة إلى تصانيف الشيعة*، الشيخ آغا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ـ ١٣٨٩)

١٨. *الرجال:* النجاشي أحمد بن علي بن أحمد بن العباس الأسدي (٣٧٢ـ ٤٥٠هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٠٧هـ.

١٩. *روح المعاني* (تفسير الآلوسي): محمود البغدادي الآلوسي (المتوفّى ١٢٧٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٢٠. *الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر*عليه السلام: مبرّة الآل والأصحاب، الكويت.

٢١. *السنن*: ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ ـ ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، نشر إحياء الكتب العربية.

٢٢. *السنن*: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣. *السنن الكبرى*: أحمد بن الحسين البيهقي (المتوفّى ٤٥٨ هـ) دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

٢٤. سير *أعلام النبلاء*: الذهبي محمد بن أحمد (المتوفّى ٧٤٨ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ.

٢٥. *السيرة الحلبية*: علي بن إبراهيم الحلبي (المتوفّى ١٠٤٤ هـ) دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

٢٦. *السيرة النبوية*: ابن هشام عبدالملك بن أيوب الحميري (المتوفّى ٢١٢ أو ٢١٨ هـ) دار التراث العربي، بيروت.

٢٧. شرح *النووي على صحيح* مسلم: أبو زكريا يحيى بن شرف (٦٣١ـ ٦٧٦هـ) دار القلم، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٨. شرح *نهج البلاغة*: ابن أبي الحديد المعتزلي (المتوفّى ٦٥٥هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨ هـ.

٢٩. شرح *نهج البلاغة*: مثيم بن علي بن ميثم البحراني (المتوفّى ٦٧٩ هـ) دار الآثار للنشر ودار العالم الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

٣٠. *الصحيح*: البخاري محمد بن إسماعيل (المتوفّى ٢٥٦ هـ) دار الكتب

العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ.

٣١. *العروة الوثقى*: السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (المتوفّى ١٣٣٧هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

٣٢. *العقد الفريد*، ابن عبدربه الأندلسي (المتوفّى٣٢٧هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٣. *عمدة عيون صحاح الأخبار*: يحيى بن الحسن ابن البطريق الحلّي (٥٢٣ـ٦٠٠هـ)، تحقيق المحمودي والبهادري، نشر ممثلية السيد القائد في الحج، طهران، ١٤١٢هـ.

٣٤. *الغدير*: العلّامة عبدالحسين بن أحمد الأميني (١٣٢٠ ـ ١٣٩٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ.

٣٥. *الفائق في غريب الحديث*: محمود بن عمر الزمخشري، (٤٦٧ـ٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٣٦. *فتح الباري في شرح صحيح البخاري*: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧. *فهرست أسماء علماء الشيعة ومصنفيهم (فهرست منتجب الدين)*، أبو الحسن علي بن عبيد الله ابن بابويه الرازي (ق٦هـ)، طبعة المكتبة المرتضوية، طهران، ١٤٠٤هـ.

٣٨. *في ظلال نهج البلاغة*: محمد جواد مغنية رحمه الله، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢م.

٣٩. *كنز العمال*: عماد الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (المتوفّى ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٤٠. *مجلة: (تراثنا): العدد٢ و٣*، نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث في قم المقدّسة، السنة ٩، ١٤١٤هـ.

٤١. *مجمع الزوائد*: علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ـ٨٠٧ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

٤٢. *مجموع الرسائل الكبرى*: ابن تيمية الحرّاني (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

٤٣. *مجموعة الرسائل والمسائل*: أحمد بن تيمية الحراني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤٤. *مختصر تاريخ دمشق*: ابن منظور محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

٤٥. *مراقي الفلاح بإمداد الفتاح*: الشيخ حسن بن عمّار الشرنبلالي.

٤٦. *مروج الذهب*: علي بن الحسين المسعودي (المتوفّى ٣٤٥ هـ) دار الأندلس، بيروت .

٤٧. *المستدرك*: الحاكم النيسابوري محمد بن عبدالله (المتوفّى ٤٠٥ هـ) دار المعرفة، بيروت.

٤٨. *المسند*: أحمد بن حنبل (المتوفّى ٢٤١ هـ) دار الفكر، بيروت.

٤٩. *مصادر نهج البلاغة وأسانيده*: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٥٠. *المعجم الصغير*: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ـ ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩ هـ.

٥١. *المعجم الكبير*: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ)

دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

٥٢. *مفاهيم القرآن*: جعفر السبحاني، نشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدّسة، ١٤٢٠ هـ.

٥٣. *مقالات الإسلاميين*: علي بن إسماعيل الأشعري (المتوفّى ٣٢٤هـ) الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٥٤. *مناقب الإمام علي بن أبي طالب*: ابن المغازلي علي بن محمد بن الطيب المالكي (المتوفّى ٤٨٣ هـ) دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٥٥. *من لا يحضره الفقيه*: الشيخ الصدوق (المتوفّى ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٤هـ.

٥٦. *منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة*: قطب الدين بن هبة الله الراوندي (المتوفّى ٥٧٣هـ)، منشورات مكتبة السيد المرعشي رحمه الله، قم المقدّسة، ١٤٠٦هـ.

٥٧. *الموسوعة الفقهية الكويتية*: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤١٤ هـ.

٥٨. *نهج البلاغة*: جمع الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) لخطب أمير المؤمنين عليه السلام بيروت، ١٣٨٧ هـ.

٥٩. *نيل الأوطار*: محمد بن علي بن محمد (١١٧٢ ـ ١٢٥٥ هـ) دار الجيل، بيروت.

٦٠. *الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية*: جعفر السبحاني، تعريب خضر آتش فراز، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ١٤٢٦هـ.

فهرس المحتويات

المبحث الثالث: الصحابة